الدحديرة

رواية

عبد الفتاح مرسى

الاهداء:

إلي حقبة مضت
كان فيها معظم السياسيين أدباء
ومعظم الأدباء سياسيين
فكان للأدباء دور فيما يكتبونة
وللسياسيين إبداع فيما يفعلونه

(عبد الفتاح مرسي)

(١)

كان عم صادق .. أول من قابلني .. وأول من صدق أني - علي البيعة - ولم أكن مع هؤلاء السياسيين العتاة .. وإن كنت بعد ذلك .. تمنيت أن أكون معهم .. ربت على ظهري .. وقال:

- ما عليك يا أستاذ حلمي .. ياما عيني رأت سياسين وشباب من الحركة الوطنية .. هم ضيوف .. يأتون ويذهبون ولا يخلفون في السجن سوى الذكريات الطيبة .. هي تجربة .. تأتيها سائحا .. أفضل من أن تكون فيها مواطناً إلى الأبد

وهذا ما كان .. أمضينا الشتاء الذي بدأ في عام أثنين وسبعين وأنتهى في عام ثلاثة وسبعين .. وتم الإفراج عنا جميعا .. في نهاية أغسطس .. قبل العبور .. عندما تم القاء القبض علي مجموعات جديدة من السياسين المتجهمين..!

السجن ...

بعد مضى مدة وجيزة فيه - يتلاشى منه العذاب .. يصير، سجن وكارثة ثم بعد مدة أخرى - قد تطول أو تقصر .. يتكيف السجين مع الكارثة .. فلا يتبقى له إلا السجن .. يداعبه الأمل علي طول لحظات اليقظة وخلال الأحلام المضغوطة .. أن تنقشع الغمة وتصير أيام السجن إلى ذكريات .. عادة ما ينساها الأنسان السوي..!

ليوم السجين مراحل وأحقاب .. للساعات رأس وجذع وساقين .. للدقائق مخالب يصعب على مقص الحلاق - أو مقص الجنايني الحدادي - تقليمها.. فتنشب سنونها في الأحشاء .. يسيل دم الماضي ويتخثر دم الحاضر..!

لكن في كل الأحوال - السجن للسياسي - ذي الخيال .. دنيا جديدة .. تجربة وأكتشاف.. إذا ما تخلص من الصدمة الأولى.. ومن سلسلة (المعارك) التي يفرضها إثبات الوجود .. دون عاهة - بعدها يتم التأقلم وينفتح على ذلك العالم.. مبهور الانفاس..

كان للمتودكين من السياسين القدامى، اللذين مروا بتلك الخبرات دوراً في مساندة الأعواد الخضراء .. يصنعون لها الدعامات حتى يشتد عودها .. بعد ما زالت، أيام العذاب.. وتكيفنا مع الكارثة .. عثرنا على الضحكات الضائعة والنكات المخبأة في ثنايا الزفرات .. أعيد أخراج المشاهد التي مررنا بها في حجرات الأمن العارية إلا من المصابيح شديدة الاضاءة.المركزة في قاع العيون والتهديدات بعرض مزعج من فصل واحد، يقوم ببطولته أحد التعساء الذي يوقعه سوء طالعه فيختارونه ليمثل دور العنيد المتمرد .. ومن صيحاته المؤلمة واحتجاجاته شديدة الوقع .. يتعمدون أن تصل إلي رفاقه واضحة .. حتى تزداد عقولهم تشوشا .. وبقليل من الجوع والرعب .. تنفتح مغاليق النفوس

الحديدية ليمد - أصحاب الوجوه الحليقة والقمصان النظيفة المكوية سواعدهم بداخل أعماق الأعماق .. يستخرجون من فوق قدس الأقداس - تلك الحقائق المقدسة .. ليجدلوا منها حبلا . يشنقونهم به ..!

صارت هذه العروض التي عصرت أمعاءنا. عروضاً يعجز شارلي شابلن نفسه عن ابتكارها .. نشرناها نكات وقفشات وغرقنا في الضحك .. إلا أنه لم يكن ضحكا عاديا .. كان ملوثا بالتشفي والخواء.. لكنه كان ضروريا لغسل وتطهير الجروح.. بتلك الدموع التي تنزها العيون دون بكاء .. حتى يعود كل منا إلى شخصيته التي كان يسكنها قبل انتزاعه من الحياة، النهار، العائلة، الأصدقاء، العادات المستبدة.. ويلقى به في مقبرة من حجارة وحديد.. وأبواب متجهمة.. وسجانين بؤساء ينتظرون في صفوف أعمالا أضافية.!

حاولت بقدر طاقتي أن أتلبس شخصيتي السابقة.. فإذا بتاريخ القبض عليّ،لحظة وقوع الفعل، حاجز مرتفع.. تقترب منه (الشخصية) لكن لا تتخطاه.. بذلت جهداً مضاعفا وعنيداً.. حتى أكون على المستوى القريب من الشخصيات التي شاءت ظروفي أن أحبس معهم.. ورغم تواضعهم الشديد .. ومرورهم من نفس النفق.. كنت أراهم طوال القامة وفي صدورهم أكثر من قلب.. حتى أني أطلقت على كل فرد من أفراد القيادة الخمسة .. لقب (المركز)..

وكـان المركـز الأول، مـحـام.. تهـمـتـه - التي منحـتـه هذا الترتيب - أنه أنشأ وأدار ومول وروج لقيـام تنظيم سيـاسي يحض على تغليب طبقة العمال والفلاحين على باقي الطبقات - في نفس الوقت خلت الحيثيات من الأتهام - بالشيوعية..!

كما لم يجرؤ أحد أن يتهم هذا التنظيم بأن أعضاءه يؤمنون بمبادئ ثورة ٢٣ يوليو كما فسرها عبد الناصر، في خطبة وميثاقه وبرنامجه السياسي..

لم تكن ذكراه الثالثة .. قد حلت عندما تم إيقاف قطاره .. وقام السائق الجديد بالعودة به في الاتجاه المضاد..!

كنت يومـا .. وأنا طالب بالجـامـعـة عـضـوا في منظمـة الشباب، أحلم بالوطن العربي الكبير الذي سمعته في الأغاني - والأناشيد مع محمد عبد الوهاب، وعبد الحليم حافظ واستمرت علاقتي ببعض الأصدقاء القدامى .. نتراسل بكروت المعايدات ونكتب عليها الشعارات التي لم يصل القطار إلى محطاتها من باب الذكرى.. لحلم عظيم إنكسر «قلت هذا اثناء التحقيق عشرات المرات.. وحلفت بالمصحف.. والبخاري»!

كـان لابد وأن نجـد مـخـرجا - حـتى لا نفـقـد روح الفكاهة عندما نموت من الضحك أمام، مقولة تغليب طبقة العمال والفلاحين على باقي الطبقات .. والمجموعة التسعة عشر.. المقبوض عليهم-

بعد تصفية المائة والعشرين.. ليس بينهم عامل أو فلاح واحد - يوحد الله - حتى تأخذه النيابة تكئه .. الفلاح الوحيد بيننا - يحل بكالوريوس زراعة ويمتلك خمسة عشر فدانا - لديه حديقة فواكه وسيارة نقل وسيارة خاصة.. جميعنا من الطبقة الوسطى الشريحة العليا والوسطى وليست الدُنيا.. بيننا الدكتور الجامعي، والدكتور الطبيب. والماچستير، ومديري العموم، ومديري الإدارات وبعض المحامين والمدرسين.. أثنين مدرسان بالثانوي وأنا مدرس بالإعدادي.. وللحقيقة - لم يتعرض أحد منا بسوء أثناء التحقيق وتليين الأدمغة الناشفة من قبل السادة الضباط أو السادة وكلاء النيابة.

لا ضد أبداننا ولا ضد - عبد الناصر-أو ما يمثله من مبادئ .. تستهدف الروح القومية وبعث الوحدة .. والأصرار علي معادة الاستعمار وإسرائيل..

جميعهم الضباط والنيابة تجنبوا الخوض في هذه المواضيع بكل أدب.. لم يشر أحد مطلقا إليها حتى ولا من طرف خفي بأي نوع من أنواع التهجم البذئ الذئ كانت تقوده فرقة (حسب الله) في أجهزة الأعلام. «وكان ذلك مصدر لعذابنا... » هم كانوا يعلمون سبب إلقاء القبض علينا.. ونحن أيضا كنا قد أدركنا الأسباب حتى بدا في بعض الأحيان الأمر لنا -- أنهم يفعلون أشياء أرغموا على فعلها وأنهم - بداخلهم - يتأذون من إتيان هذه الأفعال .. نراهم

متعجلين.. ليس لديهم أسئلة محددة.. وفي نفس الوقت لا يجرؤون على القاء تهمة بديلة، وهذا فى حد ذاته يدل على سلامة الضمير وعدم طمسه .. كنتُ أتوقع وقد تم التحقيق لكل منا على حده - أن يرجه لى اتهام - بالاخوانيه أو الشيوعيه لكن هذا لم يحدث قط .. لكن عندما سمعت بحكاية العمال والفلاحين الذين سنأتى بهم ونضعهم فوق الطبقات الأخرى .. تصورت سيدةً بدينة تجلس على وليدها الطفل فتزهق أنفاسه .. كما وأننا نركب العربة المكيفه من الديزل الفاخر وهى مقاعد بالحجز ولا يتم الحصول عليها الا - بالمال أو النفوذ- كيف يتسع لكل السائرين فى المدن وراكبى قطارات الدرجة الثالثة .. وقطار الدلتا العارى .. والمضغوطين فى الاتوبيسات .. وهم جميعا من العمال والفلاحين -كيف يسعهم القطار الفاخر .. « رفض وكيل النيابه .. الأقتناع بهذا المنطق أيضا فلم ألح عليه وعدت أقسم بالختمه ! » وكنت أضحك ضحكات عصبيه جافه وأقول .. لماذا ؟

كان لديهم جميعا من أول المخبر .. حتى رئيس النيابة بأمن الدوله - قناعة بشىء غير واضح لنا .. وكنا قد وضعنا يدنا عليه .. كما كان لدينا من أول المركز الأول حتى .. العبد لله .. براعة فى أن يقوم كل منا بدوره الذى قدر له .. بنفس قدر قناعتهم هم العسكر .. ونحن الحرامية !!

على اكتافهم الدبابير .. وفى معاصمنا القيود الحديدية !!

لاهم فـرحـانين .. ولا نحن زعـلانين من اداء تلك اللعـبـة (العيالى ..)

سألونا عن أموال التنظيم .. وسألونا عن أسماءنا الحركية .. وسألونا عن الجهات الخارجية التى تتعاون معنا .. «قلنا لا نعرف قولوا أنتم .. » هل هى ليبيا ؟ .. هل هى سوريا ؟ هل هو العراق .. ؟ أم انكم تتبعون بيروت .. ؟ - كانت اكبر المفاجاءات التى هزت كيانى المحدود .. أن أعلم أن هذه البلدان .. صارت أجنبية . « يا خسارة الأموال التى أنفقت على أقناع التلاميذ بالوطن العربى من المحيط الى الخليج- أنا شخصياً قلت اننى أتبع دولة داهومى فلم يضحك الضابطان كما أنهما لم يزعلا .. التفت الملين إلى المجمد - أحدهم يقوم بالترغيب والآخر يقوم بالترهيب - وسأله :أيوجد حزب ناصرى فى داهومى ؟ هززت رأسى وأكدت له .. أن بعض أعضاء الحزب الطليعى السرى قد يكونوا قد فروا إلى أفريقيا .. التى كانت فى بؤرة الشعور كالأخوة العرب ..

اكتفى الضابط أن أمتعض ونظر إلى شزراً .. وكنت أتوقع منه أن يسألنى :

- هل هى موسكو ..؟

لكنت نكاية فيهم .. هززت رأس موافقا وأدليت

باعترافات كاملة .. أكتب فيها أسماء ليوتولستوى ودوستفسكى وتشيكوف وبشكين ومكسيم چوركى وسيلوخوف وانتشنكو ورحمانوف وعشرات من الأدباء والفنانين اللذين هم صلتى بهذا البلد الذى يتزعم نصف العالم .. !

(٢)

« من اسوأ المواقف التى يمكن أن يتعرض لها انسان .. أن يوضع فى صندوق ضيق ويغلق عليه بإحكام ويلقى فى البحر .. من المفترض أن شعوره سيكون شعوراً بالنهاية القاتمة والتي ستضغط على أنفاسه، تسحق روحه وتشل تفكيره، وعندما ينفد الهواء القليل بداخل الصندوق يسلمه تماما لحالة الاختناق والسحق.. » هكذا كان شعوري حالما أفرغتنا السيارة وزج بنا من خلال الباب الضيق الجانبي من باب السجن الكئيب..

وقفت في صف غير متناسق أمام عيون ضابط كبير له وجه طيني أبلزي، أخذ يتفحصني ثم أنتقل إلي باقي الرفاق..

كان يخفي وجهه العلوي وراء نظارة زرقاء - كما كان يغطي جزءاً منها شفة الكاب ذي الصقر الجارح.. كنت لا أزال أعاني من

حالة الإختناق.. كان من المفترض أن يسقط جذعي العلوي عند حذائه الاسود اللامع عندما تتخلى أقدامي عن حملها الهزيل، فيما كان العساكر في حللهم الصوفية الصفراء بأزرارها النحاسية التي كانت تتداعى بداخلي، يحيطون بنا.. وأسمع لها رنينا وأصطكاك سقوط حبات البلي في إناء من الزجاج الفارغ، صورونا فردا فردا، مع تلك اللوحة الخشبية السوداء التي يكتب عليها الأرقام بالطباشير .. صرت رقماً.

وأفرغوا جيوبنا من المحافظ والأوراق والنقود والمفاتيح والمناديل وكذلك خلعنا الساعات جردونا من كافة الملابس التي على أجسامنا .. وقفنا عراة تماما.. أمام الطبيب ضئيل الحجم ذي الرأس الكبير.. أخذ يفحص أجسامنا بالقلم الجاف البلاستيك.. إذا ما رأى أثر لجرح قديم، لمسه بطرف القلم ثم قام بتدوين شكله وحجمه في دفتره المستطيل.. ثم ينحني ليتفحص عوراتنا من الأمام ومن الخلف..!

بعض العساكر يدفعوننا بأياديهم الباردة في ذلك اليوم الشتوي السكندري وكأنهم يستدفئون بسخونة أجسادنا.. فنختلج.. ويمنعوننا من وضع أكفنا فوق عوراتنا، أمال الطبيب العجوز - حليق الوجه - رأسه الهائش بالشعر البني الأكرت ذي الجذور البيضاء وأخذ يتفحص ذكورتى.. وعندما تحركت أوقفنى بطرف قلمه البلاستيك - ثم مد القلم ورفعه، أو غرز مقدمته في أسفله..

بدا لي الأمر - كوميديا.. لكنه يدعو للبكاء..!

ضممت ساقيّ فنغزني في وركي. أبعدتهما واعتدلت.. «لابد وأنه هرب داخل محاشمي ويبحث عنه.. ماذا يريد أن يرى؟.. هو كالقواقع.. يستشعر الخطر فما بالك وقد نغزته بسن القلم.. سوف يختفي تماما ولا يظهر له أثر..» وضع القلم أفقيا في فمه وأمسك بيضتاي. تحسسهما كأنه يقيس صلابتهما.. ثم رفع وجهه مشدود الجلد نحوي وأخذ ينظر في جبهتي - كان لا يزال منحنيا، بدت عيونه الرمادية الواسعة أكثر إتساعا واكثر بريقاً..

- هذا الجرح؟

ورفع ذقنه في حركة سريعة إلى أعلى..

كان لا يزال قابضا على إحدى بيضتاي، يضغط عليها ويريدني أن أجيب.. لم أشعر بالألم فيها.. ولكني شعرت بألم شديد خلف الرأس- ما الصلة؟ - أبتسم عن صف أسنان صفراء صناعية متساوية وانتظر إجابتي..

- كان خراجاً قديماً..

إزداد الألم خلف الرأس ، هبط إلى عنقي؟ يعصف بي تيار بارد ، يسيل على عمودى الفقرى هابطا إلى أسفل؛ يد العسكرى البدين الذى يشحر فى أذنى من الخلف وضعت على ظهرى .. كنت

أنتفض و كانت يده دافئة .. لم أتبين أن - الطبيب قد بدأ فى استخدام كلتا يديه إلا عندما أخذ يكتب فى دفتره .. وغرز سن القلم فى بزى لأتحرك من أمامه لأخلو مكانى لآخر، بادرت بوضع كفى على عورتى صانعا و رقتين من التوت بكل الاصابع .. بينما رجل فى العقد السادس يرتدى ملابس السجن الزرقاء ويضع-كاسكيت قماش من نفس اللون على رأسه المستطيل ،يحمل بين يديه طبقا به كوب من الشاى ، لفت نظرى الدخان يتسكع فوق فوهته .. كان يقف خلف الطبيب ، طويلا، الطبيب لا يصل الى ذقنه ، رأيته يبتسم فى وجهى . هل يبتسم لعريى؟ أم أنه يعرفنى؟ .. هل يشجعنى؟

شعاع وصل بين قاع عينى ونظراته الحانية، كان وجهه النحاسى وشاربه الرصاصى يتفاعلان مع رعشات شفتيه هل يريد ان يرحب بى ؟ ولماذا؟ خيل لى أنه يرسل الىّ(حديثا).. وعندما مال ليضع كوب الشاى بجانب ذراع الطبيب على سطح المنضدة الخيرزانية الصفراء .. كان لا يزال يحدّجنى بنظراته.. يرسل الىّ برسائله .. لأول وهلة أعتقدت - لفكرة سابقة عن المسجونين- أنه شاذ ويتملى برؤية بدنى العارى .. الذى كان يختلف عن لون وجهى وساعداى .. ثم ملت الى فكرة.أنه ربما كان يعرفنى .. وبرغم أنه أختفى من أمامى فى اللحظات التالية - ألا أن أبتسامته،وتلك النظرات الصامته، أنتشلت صندوقى المغلق من

قاع البحر ثم فتحته .. فغمرنى الهواء الرطب مقتحما رئتى .. شهقة الغريق الذى أمتلأت رئتاه بالماء .. تلك الشهقه التى يعقبها طرد الماء وعودة التنفس .. رعشة الحياة، تحركت أطرافى الميته..!
إرتدينا مـلابسنا - نفس الملابس ، فنحن قـد وصلنا الى سـجن الحمراء بعد تحقيقات نيابة أمن الدولة التى استغرقت ثلاث أسابيع فى مبنى المباحث العامة .منذ تم القاء القبض علينا.. أفرجو عن البعض .. ونقلونا نحن الى (المكان الأمين) لحين صدور قرار الأتهام فى القضيه السياسيه .. التى كنت بصدق - لا أعرف لها رأسا من رجلين .. ! ونحن نسير بصحبة السجان العجوز الضجر - يلق فى بدلته الميرى ويزكأ إلى الأمام - جارا على الأرض حذاءه الضخم المترب، نحو عنبر التسكين، نعبر الحوش ونطيعه كلما قال - حاذى.. حاذى - مشيرا بعصاه الصغيرة التى كانت من البوص - يتلاصق بعضنا فى ظهور بعض ، نحن الذين نزور هذا المكان لأول مرة ، بينما عدد منا - لا يحاذى وينفصل عنا فى مجموعة أخرى .. كانت تتجادل مع الضابط الكبير .. رأيته، نفس السجين ذى العينين الحانيتين ، يحمل دلوا مبطط ثقيلا .. توقف وأخذ ينظر نحوى، تلفت حولى لأرى هل ينظر الى أحد غيرى .. كان يبتسم لى .. ماذا يريد هذا الرجل الذى لا اذكر أنى أعرفه .. وثمة بضع مساجين فى ملابسهم الزرقاء الباهته أو الروماديه - يتطلعون الينا بعيون خالية من التعبير .. ينقلون البصر فى الذين حولى والذين يتخلفون عنا .. وعندما أتى

الضابط الكبير وراءنا مسرعا .. صاح العسكرى النحيل (قف .. أنت وهو ..) وأخذ يلمس أجسادنا ببوصته .. عرفت فيما بعد - أن الششتاوى - نائب مدير السجن - يوجهه الاسمر الدهنى الجامد وشفته العليا التى تركب على شفته السفلى .. قد غضب من حديث (المتوركين) معه وأنه أوقف الطابور - وجعلنا نلتفت اليه - صاح العسكرى (الى الشمال در) ثم بصق تخبطت أكتافنا فى بعضها حتى استدرنا جميعا ناحية البوصة .. ! كان المسجون حامل الدلو المبطط قد مر خلف الضابط الكبير .. تمهل ومن فوق كتفه المرصع بصقر ودبورتين وزرار - - أخذ يرسل الى نظراته .. لم أسمع ماذا قال الضابط الكبير كما أنى لم أتلق رسالته .. شفتاه تتحركان .. لكن عينيه كانت ترقب حركة الضابط الكبير . . و النقيب القصير المكور الذي جاء خلفه .. كذلك اثنان من المساعدين .. وجمع من العساكر .. وفى اللحظة التالية أختفى .. حتى خلت أنه يتواري خلفهم .. تنبهت الى أن الضابط الكبير قد قسم السياسين الى فريقين ،، وأنا أقف مع العدد القليل (سبعة) وصحب أحد المساعدين (الاثنى عشر) الآخرين إلى مكان آخر .. تم حبسهم فى زنازين التأديب - وسرنا نحن خلف العسكرى الذى يشخب بحذائه ويرتعد من البرد .. إلى عنبر الحبس الاحتياطى ..

« لم يستمر وجودهم فى زنازين التأديب اكثر من أسبوع -

عرفت من حديث المساجين عنها بشاعتها وأنها سجن داخل السجن .
ثم تجمع الشمل لنعيش معا حياة جماعية.. خفقت كثيرا عنى وطأة
الحبس لأول مرة فى حياتى .. وصار لنا قيادة تعمل على تحسين
المعيشة داخل السجن - بشتى الطرق و الوسائل ، ولا تغفل حقا
للسياسين تريد الادارة أن تتقاعس عن الوفاء به .. ! وكانت
القيادة من نفس المجموعة التى حبست فى التأديب لتتعلم كيف
تخاطب الششتاوى دون ذكر اللوائح والقوانين .. ! وكان على
القيادة - بث الحمية فينا لنخوض هذه المعارك - التى تمثل ضغطا
على ادارة السجن والتى تبدأ بكتابة الشكاوى الى المحامى العام
- وإلى هيئة الدفاع التى شكلت من نخبة من المحامين المتطوعين
تمرسوا فى هذا النوع من قضايا الرأى .. وقد تصل هذه المعارك
إلى الاضراب عن الطعام لإثارة الرأي العام .. والرد على خطابات
لجان العفو الدولية .. وقد عاملت - القيادة التى شكلت من خمس
اشخاص - الجميع، من يعرفونهم ومن لا يعرفونهم على قدم
المساواة فى توزيع حصص السجائر،والأطعمة التى ترد فى الزيارات
للبعض .. وفى توزيع بونات الكافتيريا ..كان من نصيبى - أو
هكذا دبر عم صادق حين الرميحى - ليعين لخدمة زنزانتى ..
قدم لى كثير من العون .. بحكم أنه من المساجين القدماء .. وارد
ليمان طره .. والذى يعمل لهم حساب في سجون الراحة بداخل
المدن ..كما أنى تأثرت - بقصته - أيما تأثر ..!

لكل دائرة مـركـز واحـد .. دوره أن يبـقى فى القلب يشع خيوطا مستقيمة رقيقة لا تري، تبدأ من نقطته وتنتهي الى نقطة بعيدة وكلما طال شعاعة اتسعت الدائرة ..

سـألت نفسى .. لكن لماذا اختـار - التنظيم بداخل السـجن - خمسـة مـراكز - تخيلت الدوائر الخمس المتـقـاطعـة التى تمثل قارات العالم .. ثم تخيلت رموز تحالف قوى الشعب العامل - كما صـورت على الورقـة النقـدية فـئـة الربع جنيـه - وقـد تسـببت هذه الصـورة فى الغـاء الربع جنيه مـن جذوره - وكنت أتمنى أن احتـفظ بواحدة للمؤرخين ينتفعون بها بعد مائة عام .. !

قلت للمركز الأول: انا شخصيا (رحت معكم فى الرجلين)

ولم أشأ إستخدام ﴿الناقة والجمل ..﴾

كسر رغيف العيش على جبهته وقال :

- وحياة النعمة .. ما كان هناك أى تنظيم !!

على الفـور صـدقـتـه .. فـالذى يكسـر النعـمـه على عـينيـه ويقـسم بهـذا القـسم (الناصـرى) لا يمكن أن يكون لديه تنظيم ..!! قلت :

- عزائى اننى أحلم بوطن عربى واحد .. ولو فى صورة أمم متحدة فـيـدراليـة أوكـونفـدراليـه من المحـيط الى الخليج .. يكتب

تاريخه بأى شيء - ولو بالأزميل .. قبل ان نذهب جميعا - في (الكازوزة..)

لم أشـأ أن أردد عبارة أخرى .. أمام المركز بديلا عن الكازوزة - التي كانت في ظني أفضل من (تزروها الرياح) .. فأعتبرني أني ناصري صميم أقف على مسافة متساوية من الرأسمالية - والشيوعية .. شد على يدى ومنحني الأخوه العزيزة .. وأخذ يسألني لماذا اصرت النيابة على ترحيلى معهم إلي السجن .. رغم أنهم يعلمون أن لا صلة لي معهم - وهم فى الغالب مجموعة من الأصدقاء والمعارف .. كأى حلقة ثقافية أو أخوية بينت له ظروف التحقيق وإصرري على أن تكون الأسئلة من المنهج .
- ضحك وقال.

- هي مهنة التدريس يا أخى العزيز .. تريد ان تجعل الأجوبة مطابقة لما جاء فى الأسئلة ..

وهز رأسه إعجابا بى..

فقلت له

(أنا لست بنادم أنى شُرفت وآنست معكم .. ولكنى أتمنى أن لا تطول(الحبسة) طمأننى - وهو الذى حبس مرتين من قبل .. أنها مهما طالت فهي بضعة شهور وأخذ يتفحصنى ويدور حولى .. وقال

- هل تعلم ماذا أعددنا لك أيها الأخ العزيز ؟

توقعت نوعاً خاصاً من التكريم فأنا واحد من ثلاثة لم يعرفوهم من قبل - -

- خيرا يا مركز؟

- سيقوم المركز رقم اثنين بإعداد برنامج رياضى لازالة كرشك وكرش الاخ فضل

قلت جزعا ..

- كرشى أنا .. ما به كرشى يا مركز .. إنه كرش متواضع لم يصل بعد إلى مدير عام أو حتى ناظر مدرسة ويتفق مع أسلوب الحياة التى أحياها .. عندما تستكمل غذائنا بالماء القراح والعيش الحاف .. حفاظا على المكانة فى الطبقة الوسطى الجبانه ..!

لكن بعد مرورى على برامج المراكز الخمسة الثقافية، والصحية والغذائية والرياضية والترفيهية قلت بالفم المليان على رءوس الأشهاد ..

[اكون كذاباً وضلالىء لو قلت أنى زهقان أو أريد الخروج من هذا النعيم المقيم، من يجد أكل وشرب (سياسى) وأوضه بمنافعها بها كافة الاحتياجات الضرورية من جردل للبول وجردل للشرب وبرش للأرضية، وسرير حديد ومرتبة قش دافئه وبطانيتين واحده للفرش والأخرى للغطاء وكيس للمخده .. وترابيزة عموله .. وكرسي .. وطوطو .. وشاى وسكر ومراية وكتب ومجلات وقلم رصاص وعلب سجائر فاضية للكتابة ونور بكبس من الداخل

تستطيع أن تجعله مضيئا حتى الصباح .. وكل طقه تعال كل ياحلمى .. وكل شويه خد أشرب الشاى .. خد ولع سجاير ..خد هذه الحبوب فيتامينات .. ورياضه لفتح الشهيه ولعب تسالى .. وحكاوى ونور على الكيف .. ولا شغله ولا مشغله .. وزيادة علي كده،واحد مسجون طول بعرض للخدمات .. والله يا جماعه .. انا حاسس إنهم يصنعون منى عمدة .. وسيحتاج الأمر فيما بعد .. الى (كفر) .. به كم ألف رأس يصرفوا عليّ ..]

على الفور قرر المركز الرياضى - زيادة الجرعات الرياضية لى شخصيا بعد أن لحم جسمي وبدأت ذقني تختفى فى اللغد .. وانا احاول اقناع المركز .. واقناعهم ..

- أنا يا جماعه تخين مثل أمى

يقول لى المركز الأول ..

- لمؤاخذه يا أخ حلمى .. نحن سنجعلك مثل أبوك

أحاول ان - اقول لهم .. أن أبى مات من سوء التغذية وأرهاقه فى العمل .. بلا فائدة »

من بين كل المراكز كنت أميل الى المركز الترفيهي .. هذه هى طبيعتى (العبى من يومك يا حلمي ـ الله يرحمك يا أمى ..)

لكن المركز الأدبى استقطبني .. لفت نظري بشدة إلى الكنوز التى حولى - ثمة موضوعات كثيرة ومتنوعة تدب على الارض « . إذا ما تم رصدها لأنفتحت أمامك مغارة علي بابا ..»

قلت : كيف ؟

قال : لديك والدك عم صادق !

قلت شبه مستنكراً : والدى ..؟

قال : كثيراً ما نضبطه ينظر إليك غير مصدق إنك لست أبنه ..

قلت : بالفعل أنا لست أبنه ..

رفع إلى عينيه .. بنظرات ذات مغزى وقال « إيييه .. »

قلت من خبراتى التربوية :

- إن معظم حكايات المسجونين تكون من نسج الخيال، فالذين يمضون فترات عقوبة طويلة .. يكون لديهم سكتات طويلة من الصمت،تفسح المجال ليعمل الخيال فيها حرثاً وبذراً .. وبتعاقب الأيام تتحول تلك الأوهام إلى حقائق ..

قال المركز الأدبى : وهل حكاية .. شوقى القرداحى من نسج الخيال؟

« كنت قد رأيت - شوقي القرداحي - فى بذلة الإعدام الحمراء .. مقيدا فى يد الصول علوان .. يتمشى به في حوش السجن .. »

قلت : أتعنى هذا الجاسوس؟

قال :هذا رجل تحدد موعد موته على الورق.ولكنه لا يعلم متى يتم التنفيذ، غدا .. أم بعد غد .. قد بعدم .. فلا نراه ثانية.. »

شعرت بأن جيشا من النمل يمش تحت فروة رأس .. لقد لفت نظرى بشدة إلى هذه الحالات التى حولى .. ولما أفقت كان يتحدث عن - طريقة التناول الفنى .. والفرص السانحة .. ويحضنى (مادمت أميل إلى الأدب) أن أبدأ فى قراءة الكتب التي تتنفس، لكن المركز الرياضى كان يتسلمنا . ببرنامج مكثف .. يقطع أنفاسى ويجعل النوم إحدى أمنياتى الغالية .. فأنام بعمق ساعة القيلولة .. ويهرب منى النوم - فى الليل .. لأمضيه مسهدا ..!

(٤)

قال صادق الرميحى:

- فاكر .. كأن ما حدث قد حدث منذ شهرين أو ثلاثة.. لكن ما حدث .. حدث تحديدا عام ١٩٥٤ .. نعم .. في يوم من شهر نوفمبر .. كانت الثورة في بدايتها .. كان يحكم البلد محمد نجيب .. سيفرج عني بإذن الله بعد سنه وأثنى عشر يوما .. كسرت حجارة فى ليمان طره سبع سنوات .. اشتغلت فى ورشة النجارة سبع سنوات .. وجئت الى سجن الاسكندرية للراحة محكوما عليّ مؤبد .. لا .. ليس لى نصف المدة ولا ربع المدة .. السنه سنه .. لأنى متهم سرقة وقتل .. »

- هل أنت مظلوم يا عم صادق .. ؟

بدون تردد قال

- لا .. لكن ربنا يغفر لى .. يا استاذ حلمي .. أصل ..

- سرقة وقتل .. أيعنى هذا،أنك .. قتلت ياعم صادق .. ؟

ضحك عم صادق .. أسنانه بيضاء كاملة، يعتنى بها، جلد وجهه مشدود، لا يمكن رؤية الخطوط الدقيقة حول عينيه إلاعن قرب، جسمه متناسق، كأنه - كوتش لفريق كرة قدم بنادى شعبى .. لكن ثمة عرق نافر عنيد يبدأ من منتصف حاجبه الايسر الكثيف ويمضي متعرجا على جبهته ليصل الى منبت الشعر .. ذكرنى بخطوط رسم الخرائط .. يختفى ويظهر طبقا لحالته العصبية، شعره يميل الي اللون البنى كأنه يحنيه .. إلا أن الفودين يتناثر بها الشعر الأبيض .. واذا ما خلع الطاقية الزرقاء ذات الحافة الصغيرة المرخية على جبهته وكعادته أخذ يعتصرها بين كفيه الكبيرين السمراوين كان يتضح جزءاً من لون جلده الحقيقى .. حنطى .. سائح جاء من وسط اوربا ولفحته شمس الصعيد .. فيما عدا حد البرنيطه .. شفتاه رمسيسيتان اذ أنهما متساويتان وبهما تلك الخطوط الرأسية الدقيقة التي تزول مع ابتسامته الدائمة - فهو شديد المجامله - كما أن له عناية خاصة بذلك الشارب الرصاصي - أو الفضى - فبدا فى الوجه الصحى،لرجل متوسط العمر - أنه قد لصقه،ليلعب دور أكبر من عمره الحقيقي.

- قتلت ياعم صادق ..؟

« القتل تجربة مثيرة .. كثيرا ما توقفت أمامها متحيراً .. كيف يقتل الانسان إنسانا آخر ويعيش - كما كان قبل هذا الفعل؟ كنت أتصور .. أنه ولا بد وأن تحدث بذلك القاتل تغيرات كيميائية داخليه تقترب به من الطور البدائى .. لكن ما هي هذه التغيرات ؟

- أنا قتلت .. ؟!

هز رأسه نافيا .. لكنه لم يقدر علي الرفض القاطع .. كان كمن يحاول أن يهرب من شيء.

كما أن نظراته لم تعد تستقر على شيء محدد .. وقد يتقلص خده .. وكلما حاول ان يبتسم تسقط ابتسامته ليتلقفها ويعيدها ..

- ولكنك صرحت لي أنك مذنب .. لم تنكر هذا .. كيف قتلت يا عم صادق؟

- انا لم أدبر القتل .. كما أنى لم أُقتل.. في الواقع نحن .. انا حكيت حكايتى كثيرا لدرجة أنى نسيت التفاصيل .. سأخرج للحياه مرة أخرى .. صدقنى يا ابنى .. أنا خائف فمنذ عشر سنوات كنت أتمنى هذا اليوم .. الذى كلما اقترب .. شعرت بالرهبة والتعاسة .. »

كنت جالسا على طرف المُلة .. عندما قطع حديثه وقام .. سد بجسمه الطويل باب الزنزانه ..

- عم صادق .. لم تقل لي شيئا عن أهلك .. ترانى كأبنك ولكنك لم تحدثني عن (أمي)، اطلق ضحكه جوفاء .. وقال :

- سأذهب لأحضار الشاي والسكر .. ربع ساعة ويغلق الدور ..

كان يعتصر الطاقية بين يديه .. قدمت له اللفافات الثلاث - وأشرت له أن ياخذ معه طبق بلاستيك كان به قطعة من الجبن وبعض حبات الزيتون وبيضه مسلوقة لم تقشر .. تقدم ورفع البيضة من الطبق ..

- انا اخذت واحدة .. ظهراً .. كفى ..

لم أعلق ..كان من عادته إذا ما قام ليمشي وقف واخذ يتكلم ويتلكأ ..

- غدا يا أستاذ حلمي .. أعلمك كيف تصنع الطوطو .. أنا أبيعه بعلبة سجائر صغيرة، يمكن أن تصنعه بقصافة ومسمار صغير .. ويمكن صنع الشرائط له من نسيج البطاطين .. حاول أن تخفيه في مكان بعيد عن العيون .. الطوطو ممنوع ..

« عم صادق .. هات معك المجلات من المركز .. أو انتظر حتي احضرهم » تردد قليلا .. ثم قال وهو يمضي ..

- المجلة اللبنانية .. سآخذها .. سأبيتها معي وأعيدها فى الصباح .. !

« لليل السجن صدر ثقيل وانفاس كبريتية .. لليل السجن لون رصاصي كئيب لا يفلح في تبديده فلورسنت العالم .. لليل السجن هواجسه وكوابيه .. له يدان غليظتان تقبضان على الأقدام بقوة وتطوحان بالجذع والرأس في الفراغ .. في دورات تبدأ بطيئة ثم تزداد شدتها جنونا حتى تصفر الأذان فى جنوح النوات الشمالية وريحها الصرصر ..

... لليل السجن عدو يخشاه .. ويقدر على تمزيقه إربا « أن تنشغل بالآخرين .. تكون لك قضيتك التى تشذب النوازع وتثير الاهتمامات .. » كنت قد اهتديت إلى فاعلية الكتابة .. هنا ينكمش ذلك الوحش .. يجثو تحت أقدامى ككلب أليف، حتي يغتاله الفجر .. دبلة خطوبتي صارت تدور في أصبعي .. ثم صارت تسقط إذا ما اغتسلت .. لا أدرى هل هذا لنجاح البرنامج الرياضى .. أم للبرد الشديد ..

« تبينت وأنا أنظم أرشيفا بسيطا في ظرف أصفر قديم أجمع فيه كل المعلومات التى تصلني أو أصل اليها من عم صادق .. حالة الجاسوس .. شوقى القرداحى .. »

كان المركز الأدبى .. قد فتح لنا الطريق .. مع (حصّول) علوان أبو رية .. أغدق عليه أكواب الشاى والحلوي ولفافات الدخان .. حتي تمكن أن يجعله يكف عن زجر إقتراب السياسين - من الرجل المقيد في ذراعه .. أوصانى أن أواصل نفحة بالدخان - على حساب الجماعة - كلما تبرم .. لقد حقق لى ما وعدنى به ..!

ها أنا ذا أجلس - بل صرت صديقا مقربا لهذا الرجل الذى ينتظر الموت كان لا بد وان تتعدد اللقاءات .. واتحدث واتحدث .. وأتحمل .. حتى أذيب الطبقة الثلجية الجامدة .. ثم افتش في النظرات الهائمة .. وارتعاشات عضلات الوجه .. وطريقة تدخينه السيجارة .. والمسافة التي يقطعها جيئة وذهابا بجانب جدار المسرح .. وسرعة الخطوات .. ومدى اتساعها .. وأبذل جهدا نفسيا لاكتساب ثقته - ولما تعمدت أن أنقطع عنه .. سأل عنى أحد الرفاق .. كنت أتلهف على هذا السؤال وانتظره .. ذهبت اليه وقد أعددت كافة أجهزتى للاستقبال ..

.. لكنه واصل صمته .. وقبل أن يودعني - كان فى كل مرة يودعنى - قال وشبه ابتسامة يائسة ترف في تردد علي شفتيه

- ابنى سعيد - جاء من المانيا .. ومع المحامى يحركان الالتماس بإعادة المحاكمة .. زارنى فى الصباح وكان يؤكد لى أن القضية سوف يعاد التحقيق فيها .. هم عثروا على تقرير ضابط المخابرات الذى مات .. اتفق معى ومات .. كان قد كتب اسمي مختصرا فى أوراقه - القرد - لكن هل هناك قرد يرقص على رنين الدولارات .. بالقطع يقصدنى أنا .. »

كان يضع يديه على صدره .. بينما يد - الصول علوان معلقة .. تذهب وتجيء مع كل حركة من حركة يده .. حتى أنى تساءلت لماذا يستخدم اليدين .. لماذا لا يستخدم اليد الطليقه في الاشارات .. كان بالقطع لا يعترف بهذا القيد .. اذ أن الصول علوان كان يمنحه حرية الحركة باذلا جهدا في آن لا يشعر بقيد على اشاراته ..

وانتظرت لأسمع المزيد .. ولكنه لم يزد ..

شعرت بالأسى نحوه .. فقد كنت - حين أنقطعت عنه متعمدا .. قد أخبرت بزيارة أبنه سعيد .. منذ خمسة أيام .. هل زاره مره أخرى .. أم أن الزمن قد توقف عند عم شوقى القرداحي..؟

(٥)

ينز جسمي عرقا مدرارا .. أبذل جهدا عنيفا فى مباراة كرة القدم . المساجين يهزموننا عشرة أثنين، المشجعون يحيون فريق المساجين بحرارة . الولد النشال الذى كان ينشل الكرة من اقدامنا ويخترق بها كافة الاستحكامات ليودعها من تحت أبط (المهندس) حارس مرمانا - محققاً هدفا فضيحة .. والمركز الرياضى - الذى هو دكتور فلسفة بالجامعة - بصفارته-يقوم بدور الحكم المحايد وهو يزجرنا بنظراته .. ويطلب منا استخدام العقل اذاء القوة العفوية .. دون جدوي .. أستطيع أن أمضغ قطعة اللحم الكاوتشية،وأبتلعها بلذة،بعد هذا الجهد المضنى .. ثم أتغلب على إرهاقى بحمام الماء الساخن .. واصحب كتاب - الأبلة - لديستوفسكى لأقرأ سبعين صفحة .. أستمع الى عم صادق وذهني يعمل مع شوقى القرداحي - الذى ينتظر الموت - يذكرنا بهذا المصير لكل كائن حى .. قال لى عم شوقى - أن لولده نفس ملامحى ولكنه أبيض البشرة وعيناه خضراوان .. كدت اصيح فيه

(وأنت ايضا) ثم أسأل كل من حولى - إذا ما كنت أشبه أحدا يعرفونه .. فقد أكون شريكا فى الاربعين شبيها ..!»

أتأمل المفارقة .. عم صادق ينتظر استقبال الحياة . وعم شوقى ينتظر استقبال الموت . فى الليل عندما أمسك بالقلم الرصاص،وأمامي ورق علب السجائر التى فككتها لأكتب على صفحاتها الداخليه .. لا أجد ما اكتبه - كان بعض الرفاق قد قرأوا قصائد من الشعر .. ومقالات وتعليقات .. وكان يسألنى المركز الأدبى .. أذا ما كنت قد أنجزت شيئا .. أقول : أخشى أن تأتى غير ناضجة - ينصحنى أن اكتب أولا .. ثم يتم تقييم ما أكتب .. فالامساك باللحظة الإبداعية سيخلف شيئا مفيدا بلاشك - ولكن هذه اللحظة الأبداعية .. كانت في كل مرة تهرب منى - برغم تربصى بها .. أصنع لنفسى كوب شاى على الطوطو،وأدخن آخر سيجارة ..

- عندما يطول الانتظار .... أستحضر(نوال). أنتظر صعودها علي بسطة السلم .. تصلنى رغبتها الصريحة التي أتمناها .. أصعد خلفها .. أقبلها بعدد الدرجات حتي تصل الى الدور التى تقطن فيه .. وعندما تواصل الصعود معي .. تبحث يدى عن رأس سوستة الجونلة. تقول لي - يا مجنون .. ربما أحد يرانا .. ولكنها لا تصد يدي عن الوصول إلى كنزها الدفين،وعندما أتوغل فى الاحراش .. تدفعنى برفق .. (لا كله إلا هذا .. هو لامنك ولا كفاية شرك .!!) تقسم بحبنا،أنها لن تقابلنى مرة ثانية،وأنها لن تنساق وراء جنونى .. تقول نفس الأقوال التى سمعتها عشرات

المرات .. دون ان تنقطع عن لقائى .. تعاودنى بحذر شديد .. كما أنى فى كل مرة كنت أسيطر على نوازعى البهيمية .. أشعر بالدوار .. تفلتني من أحضانها .. تكون أصابعها قابضة على اصبعى الذى به دبلة خطوبتى على - أنيسه - تقول وأنا أهبط السلالم متساندا على الدرابزين.

- يارب بنت عمك تموت !

- وابن خالتك يحصلها.. !

تكتم ضحتكتها الجرسية .. واذا ما قابلتها مرة اخرى .. في الواقع كنت أختلق الصدفة .. تسبقني صاعدة نحو سطح العمارة لأجل أن تحتج بشدة عما حدث من يومين - أرسل للمصعد بتحية حارة .. قبلة طائرة في الهوا ،واتبعها راقصا .. تقول فى اذنى وهى تعض اللحمية المشتعلة .. فتدغدغ مشاعرى

- انا اكرهك .. أدعى عليك أن ربنا يكسحك.ولا تجد فى الدنيا إلا أنا،لأعمل على تمريضك،ماذا بها الممرضة .. ولما أنت خاطب وانا مخطوبة .. لماذا تنتظرنى . ماذا تريد منى تحديدا .. اتركنى في حالى « تكون قد التصقت بصدرى واحتضنتنى بشدة - بينما أصابعى يفكوا أزرار بلوزتها العلوية .. وأضع وجهى فوق نهدها .. كان لذلك الجسد رائحته المسكرة.لازمنتى منذ الليلة الأولى في السجن .. »

برغم النشاط الرياضى والبرنامج الثقافى الجاد . والبرامج الترفيهية والخسائر المتلاحقة فى المسابقات الذهنية والرياضية ..

دأبت، نوال علي زيارتي في الزنزانه - اذا ما تم إغلاق الباب كانت هي تختبئ خلفه .. تنام بجانبي علي - المولة - تتغطى بالبطاطين الفيراني التي مهما حمصناها في الشمس .. لها رائحة بول الكلاب .. هي التي تفك أزرار البيجامة وهي التي تهبط بإستك البنطلون .. « عيب يا نوال .. » لكنها كانت تبرك علي صدري وتلقمني صدرها البرتقالي .. امتصه كطفل جائع وأنام..

« واحد ياموحد الواحد ، اثنين يا الحسن والحسين .. ثلاثة بالله العظيم ما أرجع هنا تاني . أربعة .. قعدتنا حلوة مربعة .. خمسة يافل .. سته يا ياسمين .. يا أحسن ناس معلمين .. سبعة يامخدرات وسطل على أسبراكس .. ثمانية يا شباب الحركة الوطنية يا معاكس .. تسعة تسعوا في الخير يا حراميه .. عشرة .. عاشرت ناس كثير ما لقيت الوفا إلا في الزنانزين . إحدعشر يا نصابين .. اثنى عشر يا مزورين ..

يا أخواني .. لا عمر مستشفى بنيت على مريض، ولا عمر سجن بنى على مسجون، مصير الحى يتلاقى ، الاعدام الله يرحمه ويغفر له، والتأبيده يطلع يعيش من تانى

آه . يانى .. آه يانى .. يا صف أسناني .. أعمل معروف في صاحبك ما تقع قبل ما ابوس خلانى .. »

« ثم يعقب ذلك اذاعة خبر الإفراج .. أو إنتهاء عقوبة أحد المساجين ويعلن أسمه .. فإذا بكافة الزنازين نزلاءها .. يتصايحون .. بكلمات التهانى .. »

تضحك نوال فى عبى .. تبعد بيدها التى بها غوايش أبن خالتها الذهب - بنت عمى انيسه التى تنكس رأسها محبطة وتذهب لتبكي في صدر أبيها .. الذى يتصدر مجلس العائلة منذ وفاة كبيرها ..(والدي) الذى كان ابن موت .. هكذا تقول أمى - أن اولاد الموت يكونوا أوفياء ووشهم كالبدر فى تمامه - لأن من صار خدام صارت الناس خدامه، عمي الأوسط على صلعته التى تضوى يوضع تاج الرئاسة المصنوع من ورق الكوتشينه وورق النتيجة .. المرصع بالحكم والكلمات المأثورة التى لا تثير حماس أحد .. ليبدأ أول قراراته التعسفية، زواج أنيسة من حلمى .. أتحسس صدر أنيسة، فأجد أنها صنعت نهدين من شرابات قديمة ،قطن مراتب، يصدر قراراته كأنه محكمة استثنائية بقرار جمهورى لا نقض فيها ولا ابرام .. ولا حتي التماس بالرحمة .. ويحصل بالتمرير علي تأييد وبصمات إجماع العائلة - وبنفس التمرير يتسابق أفراد العائلة فى إبداء علامات النفى - ويقسمون انهم لم يشاركوا فى هذا الاستفتاء .. لكن .. هذا هو الله .. وهذه هي حكمته . أود لو أني ضربتهم بحذائى .. لكن كرش عمي الواسع وفمه الخرتيتى يقف حائلا بيني وبين تنفيذ رغبتى .. ولا أجد جوابا لمن يقول .. (ماذا نفعل ..؟)

(٦)

استوطن الخواجة استافروا كرياكوس مدينة الاسكندرية .
اصبح يملك دكانا له عمق علي مساحة نصف العمارة التى يقيم فيها بالعطارين، بقى جيرانه فترة طويله يتأملون الوجهة الزجاجية والباب المغلق،فلا يرون خلف الأبواب الزجاجية إلا تماثيل رخامية ونحاسية ونجف قديم وشمعدانات صدئة وأكواب ردئية الصنع من الزجاج الملون المملؤ بالفقاقيع .. وتلك الفخاريات من الاطباق والأواني والمراود .. وقطع النسيج .. وبعض العملات القديمة على رف رخامى مترب.

الخواجة استافرو .. يواظب على فتح الدكان منذ الصباح الباكر .. نادرا ما يتخلف .. ولا يغلقه إلا بضع ساعات .. من الثالثة بعد الظهر حتى السادسة .. ثم يعود ويفتحه ويدخل ويجلس خلف مكتبه الصغير .. يقرأ الصحف اليونانية والفرنسية على ضوء المصابيح والاباچورات التى تحيط به .. مستخدما نظارة القراءة المكبرة .. في التاسعة مساء .. يغلق الدكان ويصعد الى شقته بالدور الثالث..

جيران الخواجة استافرو في الشارع المزدحم يتعجبون من تجارة الخواجة البائرة .. لاهم رأوا زبائن داخلون .. ولا هم رأوا زبائن يخرجون .. لكن لما تعطل تليفون كرياكوس ..كان يستخدم تليفون الحاج دهشان تاجر الأقمشة الصوفية والحريرية. . الذى يجاوره .. يرسل التحية للعمال .. ومنهم (اسماعيل الصاوى) ثم يتحدث في التليفون بتلك اللغة اليونانية أو الفرنسية .. فلا يفهم

اسماعيل من حديث الخواجة شيئا ، والخواجة - لكي يؤكد لاسماعيل أنه - يفهم في الاصول يمنحه بقشيشا .. أو يخرج علبة سجائره (الجولد فلك ويوزع على البائعين لكل منهم سيجارة ..

ويوم جاءت سيارة نقل صغيرة فوقها بضع صناديق من الخشب .. قام الخواجة بالمناداة على - اسماعيل - وطلب منه احضار عدد من العمال لانزال البضاعة داخل المحل - كم ستدفع ياخواجة؟ - (أي ثمن يا اسماعيل !!)

حاول اسماعيل و(الدهل) ماسح الاحذية أن يقوما بالعمل ليحصلا على كامل الأجر .. إلا أن الخواجة قال له:

(لا يمكن يا خبيبي .. البضاعة تقيل كتير!)

ولكن اسماعيل قفز فوق السارة - وهو الذى كانت لديه عضلات مفتولة ولم يهجر لعبة رفع الأثقال بالنادى الشعبى بكرموز إلا بعد خطوبته لشربات - وأنشغاله بالإعداد للزواج..

حاول تحريك أحد الصناديق فلم يقدر..

- إيه يا خواجة .. الصناديق بها حديد ..

- لا خبيبى .. بها حجارة ..!

ضحك اسماعيل ..

- وماذا ستفعل بالحجارة يا خواجة .. ؟ هل ستبني بها قطوع .. ؟ ولماذا تأتى بالحجارة فى صناديق خشب .. ؟ هل

ستتاجر فيها ؟

هز الخواجة رأسه .. بأنه سيتاجر فيها بالفعل - واسماعيل يتحرق ليعرف ماذا بداخلها وما نوع هذه الحجارة، لكن أهل الشارع أعتادوا علي تصرفات الخوجات الغريبة ووجود محلاتهم التى لازحام عليها. وحتي لا يخرج اسماعيل من المولد بلا حمص - ذهب واحضر أربعه من الصعايده الذين يعملون فى كار المعمار-أخذوا يحتلون فى تحريك الصناديق وأنزالها على سقالة بصعوبة بالغة مع وضع مواسير تحتها حتى يمكن زحزحتها الى داخل المحل والخواجة ستافروا لا يهدأ له بال ولا يكف عن الحركة .. يدور حولهم ويحذرهم من سقوطها أو قلبها،ويوجه لهم النصائح مما أثار اسماعيل الصاوى اكثر وزاد من تحريك فضوله في أن يرى ما بداخل هذه الصناديق ..

- اساعدك يا خواجة في فتحها .. لدينا عتله، هل أحضرها لك ؟

- مرسية يا اسماعيل ..

- طيب .. شوف يكون شيء منها كسر

- مرسية خالص .. خذ ريال لك وريال للدهل ورنيش - واقفل معى الباب

- بدري يا خواجة .. الساعة السابعة ..

- عندى شغل كتير .. بكرة أكون مشغول خالص ..

ولما فتح اسماعيل يده .. وجد ان الخواجة ستافرو قد أجزل له العطاء .. أتفق على ريال .. وقد نفحة نصف جنيه لكن بعد أن عادت الحرارة الى تليفون كرياكوس .. لم يعد يحتاج لخدمات أسماعيل ..

غفل اسماعيل يومين فاختفت الصناديق من قلب المحل .. وكان اسماعيل يتعلل ببعض الاسباب الواهية .. ويدخل محل الخواجه كرياكرس، إلا أن الخواجه كان يقف ويحيطه بالرعايه حتي يخرجه من قلب المحل .

وكان اسماعيل يقوم أحيانا .. بتوصيل مشتروات الخواجة من الباعة الجائلين الذين يدورون على أصحاب المحلات ببضاعتهم المنتقاة والتي يبيعونها بسعر أعلى نسبيا ، فواكه. أطعمة ، طيور، أسماك، أدوات منزلية .. أدوات نظافة .. بتقدم اسماعيل لحملها وتوصيلها إلى مسكنه الذى به سيده يونانية متوسطة العمر .. مع خادمة سمراء عجوز، كان اسماعيل وهو يناولها مشتريات الخواجة .. يرسل البصر داخل الشقة .. فيجد انها مكدسة بالأثاث الفاخر .. ورائحة الثراء تهب من داخلها تملأ خياشيمه، عندما تختلط رائحة النظافة بالعطور .. برائحة دخان السجائر التى تدخنها (الخواجاية) كل شيء ينم على أن الخواجة كرياكوس .. إما أنه غنى وله ميراث، أو أن تجارته التى تبدو معطلة .. رابحة وتعود عليه بكسب كثير ..

قال له اسماعيل الصاوى ..

– لا أحد يشترى ولا أحد يتفرج عندك ياخواجة .. والحاج

دهشان يبيع أقمشة من صباحة ربنا وحتى المساء .. ويهددنا بتخفيض أجورنا أو أنهاء خدمة واحد من العمال الثلاثة..

- أوه .. يا اسماعيل .. الانتيكات لا يمكن يكون عليها زحمة مثل القماش

- انتيكات .. ماذا تعنى بالانتيكات ياخواجة .. ؟

- هل تعرف يا اسماعيل .. الهيستورى ..

تجمد اسماعيل متنحاً .. عاد الخواجة بسأله عن اسم (الزمان) بالعربى .. واسماعيل قليل الحظ من التعليم أو الثقافة لا يجد ما يقوله .. أضطر الخواجة أن يذكر له اسماء .. خوفو ونارمر .. فرعون وكليوباترا .. ورمسيس والعجل أبيس .. ولما لم يفهم شئا .. زهق الخواجة وقال

- أووه .. أنت خوخوم كبير.. !!

وخشى أن يكون اسماعيل قد فهم معني الكلمة اليونانية .. ضحك فى وجهة وربت على كتفه وقال

- ليس من المهم يا اسماعيل تيجئ فاهم .. أنا احبك كده .. سوا سوا مع الخوخوم .. يمكن تيجئ مبسوط كثير لما تشتغيل معى .. تكسب كثير براديس - ضرورى .. !

- ماذا تقصد يا خواجة .. ؟

رفع استافروا كتفيه حتى أذنيه وقال :

(بردون .. أنا احب اللى يشتغل معايا .. يكون خوخوم ..
يعنى ولد كويس يشوف شغله وبس) كان الخواجه استافروا فى
حاجة إلى شخص مثل اسماعيل .. قوى وحمار شغل .. ولا يفهم
كثيرا فيما يتاجر فيه؛ منحه بعض النقود .. بينما اسماعيل سر في
نفسه أنه وقع علي مصدر لموارده المالية الشحيحة . واعتقد أن
وش البنت شربات حلو عليه .. واذا استمر سرسوب الفلوس من
جيب الخواجة استافرو لجيبه .. مهما كانت متقطعة وقليلة .. ربما
تغلب على عقباته الماليه - عندما يدخر كامل مرتبة للزواج ..

لكن حينما أمسك اسماعيل بمنطال صغير من الفخار القديم
.. أنزعج الخواجه استافروا واندفع اليه وخلصه يحذر من يده ..
قال اسماعيل

- اعطنى هذه القلة الصغيرة يا خواجة ..

بعد ان اطمأن الخواجة على سلامتها واعادتها إلى مكانها
.. قال ساخرا من غباء اسماعيل

- هل تعرف ياخوخوم .. هذه القلة .. كم تساوى .. ؟

- اذا كانت القلة الكبيرة القنائى .. بثلاثة قروش فكم
تساوى هذه القلة الفرفوته .. ؟

[هذه الفرفوته يا خوخوم .. تساوى ثلاثة ألاف جنيه ..
مليم واحد ناقص نو] انكتم اسماعيل الصاوى .. وقبل أن يغادر
الدكان أخذ يتطلع إليها غير مصدق ودار فى رأسه افتراض صحة

كلام الخواجه .. فأخذ، ينقل البصر منها وإلى الأوانى ولانتيكات الأخرى .. وكلما وقع بصره على واحده .. طن في رأسه صوت الخواجه كرياكوس .. ثلاثة ألف جنيه .. أربعة ألف جنيه .. خمسة ألف جنيه .. عشرة ألف جنيه - كان الصوت يعلو .. ويشتد ويختلط .. وكأن هذه النقود تتطاير بداخله .. ملأت صدره وأزهقت انفاسه .. صاح ليوقف الهدير فى رأسه ..

- ياخبر منيل بستين نيله .. علي كده .. الدكان به مليون جنيه .. ؟!

كان قد خرج على الرصيف .. واستافروا يغلق الباب خلفه باحكام ويبتسم من خلف الزجاج .. (إما أن الخواجة مجنون .. أو يسخر مني ..) اتسعت أبتسامة الخواجة من خلف الزجاج .. فأنبعث خاطر فى ذهن اسماعيل وهو يعود لعمله بدكان القماش

« ولماذا لم تقل .. أنك كروديا يا اسماعيل .. ألم تره وهو يغلق الباب .. ولم يهدأ حتي أخرجك من الدكان .. ؟!

بإعلان قيام الدولة اليهودية في فلسطين، نشطت الحركة الصهيونية فى ترحيل أو إجبار اليهود لمتقاعسين على الهجرة إلى اسرائيل .. بشتى الطرق .. إستعانت بعصابات من غلاة الصهانية أنفسهم لبث الرعب والزعر في قلوب اليهود الذين إستمرأوا الحياة فى الاوطان التى يعيشون فى ظهرانيها ..

ولما تبين أن الهجرة السريعة إلى تل أبيب - تبدد جزءاً من ثروات اليهود العينية وعقاراتهم ومصانعهم .. ومتاجرهم .. فقد أعلنوا أن ثمة خلافات نشأت بين اليهود والصهاينة وأن بعض اليهود يفضلون الأقامة فى الاوطان التى نشأوا فيها،ولا يتحمسون لقيام دولة يهودية على حساب الشعب الشعب الفلسطين .. دون اعتبار للوطن القومى .. ومن هنا ظهر دور الوكلاء - الذين يقومون بتهريب ممتلكات اليهود .. عبر شركات أوربية إلى اسرائيل .. فهم يريدون أخذ كل شىء .. حتي جدران المنازل التى عاشوا فيها .. فما بالك بالتحف والأنتيكات والأثاثات القيمة والرياش الثمينة .. حتى الكتب والمخطوطات والادوات المنزلية ..وكل ما صنع من مادة كريمة أو معدن نفيس ..

الخواجة شارلي زوريان .. الذى يعرف بين أهل كرموز(بشلبى زيدان). وهو قد مارس أعمال السمسرة وبيع العقارات والأراضى .. تحول إلى - تسهيل وتصدير هذه الثروات متخفيا وراء اسم شركة ستافروا كرياكوس .. تاجر العاديات والأنتيكات المقلدة بالعطارين،ربما لأن - شارلى - أو شلبى - أحد العملاء المتميزين

لدى كرياكوس .. فقد كان من الطبيعي أن .. يتعرف عليه .. إسماعيل الصاوي .. الذي يقوم بإداء بعض الخدمات لكرياكوس .. ولأن اسماعيل من كرموز .. فقد رحب به .. شارلى .. واغدق عليه كرمه .. إذ ضاعف له البقشيش .. وبقيام الثورة ..وعزل الملك .. ازداد نشاط التصدير والتهريب .. وازداد اعتماد كرياكوس على اسماعيل .. الأمر الذى أثار الحاج الدهشان الذى يعانى ركودا فى تجارته فتعلل باسباب شتى .. ليستغنى عن خدمات اسماعيل .. فصار يعمل لدى كرياكوس بالقطعة ودون أجر محدد .. وأزدادت صلة اسماعيل بالخواجة شارلى .. الذى كان لا يختلف كثيرا في طريقة معيشته عن أولاد البلد فى كرموز، لهجته السكندرية يستخدم فيها أداة الجمع محل الفرد .. وصار غريبا أن يناديه .. بشارلى .. بل أن شارلي كان يسره أن يعود إلى اسم (شلبى) .. وهو الاسم الذى قدمه به لأفراد شلته على مقهى أبو سته على رأس شارع النيل .. وهش اسماعيل أن (شلبى) لم يكن غريبا على (كمال على العادلى) . وصلاح عبد الوارث .. وصادق حسين الرميحى كانوا يعرفون عنه الكثير .. لذا فقد أندمج (شلبي) فى شلتهم وصار يلتقى بهم كل مساء وهذا مالم يكن يفعله من قبل .. فهو كان يعيش فى كرموز .. ولكنه يعيش فى مستوي لا يسمح لهم سوى بالرؤية وتتبع أخباره .. أما أن يجالس الشلة - التى بها العمال والعاطلين - ويدخن الشيشه من أفواههم .. فقد أستقبلوا ذلك منه بكل ترحاب وتوجس .. حتى زال . شلبى .. التوجس من قلوبهم .. (بدقات الجدعنه) التي يتميز بها أولاد البلد وإشعارهم بأنه أخ عزيز لهم وأنه - يختار

أصدقائة .. ولا يستطيع أن يختار زملائه، في الواقع .. كانت عيني شارلي الفاحصة تقوم بالفرز والاختيار .. وكان يقوم بتوثيق هذه الصلات .. لغرض في نفسه .. أخذ يعمل علي تحقيقه منذ اللحظة الأولى .. وركز عمله على ثلاثة أشخاص بالاضافة إلى اسماعيل وكان قد عزم على استخدامهم فى عمل محدد .. يبدأ وينتهى فى أمسية، واحدة يخطط لها منذ .. تعرفه على الخواجة كرياكوس .. ومنذ استقباله له فى منزله لأداء أعمال تتسم بالخطورة، حقق فى جزء منها نجاحا .. وحصل على - عمولته - مبلغ جسيم خرج من حبابى عينيه .

(٨)

* كمال على العادلى .. المصور الفنان

في السادسة والثلاثين كان يعمل مصورا فوتوغرافيا باستديو (فانى) بمحطة الرمل، يحلم بأن يصبح ممثلا سينمائيا .. أحيانا كان يمثل أدوارا صغيرة مع فرق الهواة .. ولما تعذر عليه الاحتراف بسبب انتقال كافة استديوهات السينما وكذلك النشاط المسرحي وتركيزه في القاهرة .. صار يحلم بالهجرة الى امريكا .. فأخذ يتعلم اللغة الانجليزية فى أحد المعاهد، من خلالها تعرف بسيدة ايطالية في الأربعين تشاركه نفس أحلامه فى الفن والهجرة والثراء، لكنها هجرته بمجرد أن لاحت لها فرصة العمل كراقصة

فى أحد الكازينوهات على شاطئ البحر، حاول أن يستعيدها - فوقف عشيقها الجديد فى طريقه وسد عليه سبل الوصول اليها .. وحتى يكف عن مطاردتها - اتهموه بسرقة بعض مصوغاتها .. فاعتدي عليها بالضرب، تسبب ذلك فى عدم تنازلها عن دعواها الباطلة .. وحبس ثلاثة شهور كما انه لم يتقن اللغة الانجليزية .. ذهب الى ميناء السويس فى محاولة ان تيسلل الى إحدى السفن التجارية .. قبض عليه وحبس مرة أخرى .. ثلاثة شهور .. انتهي به الأمر الي أن يعمل مصورا فتوغرافيا بكاميرا صندوق مائية . مقره حديقة ميدان المنشية بجوار الفسقية .. ما يتكسبه من عمله لا يسد ما .. ينفقه على تدخين الحشيش، وطلباته فى مقهى ابو سته .. لكنه اذا ما عدل الطاسة، وشعشعت التعميرة الغبارة فى دماغه .. يحلف مائة يمين أنه تعاقد على تمثيل فيلم سيخرجه مخرج الروائع حسن الإمام وستبكى فيه فاتن حمامه حتى تزيب الظلط .. وسيقوم بدور شقيقه الكبير محسن سرحان كما انه سيضرب فريد شوقى باللكاميات فى آخر مشهد ووالده حسين رياض سيلقى بكلمات النهاية .. موجها الشكر لله العلى القدير الذى نصر عبده اليتيم وخسف الأرض بعصابة الحنش ..!

وأنه لهذا السبب قبض جزءا من المقاولة (عربون) مبلغا لا يقل عن عشرين جنيه .. كما أنه غدا لن يكون بالاسكندرية بسبب مقاسات الملابس إذ أن المنتج وافق على شروطه بأن يتم تفصيل خمسة عشر حلة جديدة له .. يمثل فيهم ويأخذهم بالاضافة إلى الألف جنيه .. ينتشى .. ويصرح فى قلب المقهى أنه لهذه الاسباب سيدفع ثمن كافة الطلبات .. والناس الذين اعتادوا على سماع

هذا منه من وقت لأخر .. يصفقون ويشجعون .. ويحصلون على سجائره حتى تفرغ علبته .. وقد يقبلونه ويحتضنونه ويبوسوا خده وأحد الأذكياء يلح عليه أن يوقع على قفاه بريشة المحبة - وآخر الليل .. (ابراهيم ابو ستة) صاحب المقهي يمسك في خناقة ويدق معه عركة بسبب هذه الفوضى التى سببها عندما تحمل قيمة المشاريب ونتج عن ذلك إنصراف البعض دون أن يدفعوا الحساب .. وبتفتيشه يتبين أنه لا يحمل في جيبه أبيض أو أسود .. ويتدخل فى كل مرة أفراد الشلة - إذ أنه كلما انسطل وشرب كاسين أو زجاجة بيرة .. يواصل السباحة فى أحلام اليقظة .. يتعاونون فى تحمل ما عليه من قيمة الطلبات .. وقد يتطوع (شارلي) ويتحمل قيمة المشاريب يؤكد أن الاستاذ كمال فنان موهوب وستأتى إليه هذه الفرصة قريبا .. ضاربا المثل بالعديد من الفنانين الذين بدأوا حياتهم من الصفر .. وكمال يشكره ويعده أنه سيقوم بسداد كل مليم .. وعندما يدس فى جيبه بعض الفكة يكاد كمال يبكى تأثرا .. صار العادلى لصيقا بالخواجة شارلى .. الذى يشيد بمواهبه الظاهرة والخفية ويمده بالأمل والوعود .. بجانب بعض النقود .. كما أنه يوافقه على السفر الى امريكا ويطلب منه أن يدع هذا الامر له، يدبره .. فهو سيكون وكيلا لأعماله ويثق أنه سيستفيد بالكثير من العمل معه .. كما أنه يعده بأن يرسل برسالة الي (توجو مزراحى) .. ليعمل له فيلم مخصوص علي مقاسه .. بطولة مطلقه، به كثير من المغامرات مثل بنج كروسبي .. وتلعب أمامه دور الحبيبة الولهانة .. ليلى مراد .. أو رقية ابراهيم .. فيسبح الفنان كمال العادلى .. بعيدا عن الشاطئ ..

(٩)

صلاح عبد الوارث

تجاوز الثلاثين بقليل ، بعد تسريحه من الجيش عاد للعمل في شركة كرموز للغزل والنسيج كان قد تدرب على قيادة السيارات أثناء أداء فترة التجنيد .. استخرج رخصة قيادة ورغب في أن يعمل بالشركة سائقا .. وعده أحد الرؤساء المباشرين بتنفيذ رغبته مقابل رشوة يقدمها لمدير شئون العاملين .. خمسة وعشرين جنيها - كان المبلغ جسيما ورغم ذلك فقد دبره ودفع به الي الوسيط .. وانتظر النتيجة .. طال انتظاره .. وكلما خاطب الوسيط أمهله .. بإن (ربنا خلق الدنيا في ستة أيام .. ليعلمنا الصبر) وهو يضيق بعمله أمام ماكينات الغزل . وكلما حصل علي جزاء نتيجة إهماله عاد وتذكر الرشوة والوظيفة، الموعود، وأخذ يطارد الوسيط .. الذى دأب علي التهرب منه باسباب شتى .. تجاوزه - نتيجة لنصيحة زميل له وذهب إلى المدير المرتش - فوجئ بأنه يعامله بجفاء ويوصد أمامه كافة الابواب كما أنه قد قطع على أملة الطريق بقوله : أن بالشركة مائة عامل يحملون رخص قيادة .. هل يعينهم جميعا سائقين ..؟ اضطر (صلاح) أن يطالبه - فى هذه الحالة - بالنقود التى دفعها له .. بهت الرجل . أنكر أنه حصل منه على شئ - ذكر اسم الوسيط .. فطالبه بالتوقيع على مذكرة فى الحال بالواقعة .. ففعل إذ تبين له أنه وقع بين يدى محتال بدد نقوده .. الوسيط حاصره ببعض أعوانه وطالبوه بتكذيب ما جاء فى المذكرة - فطلب نقوده أولا .. لكن

الوسيط الذى لا يملك شيئا يرده وجد أن الحل الافضل - إختلاق مشاجرة مع صلاح و فهى (ظلافها) يمكن توهان الأسباب الحقيقية بادعاء أن صلاح كان يدعى عليه كذبا لدي المدير .. ووجد أعوانه الذين شاركوه فى تبديد المبلغ أن هذا افضل .. فأعتدوا عليه بالضرب .. وفي التحقيق شهدوا عليه زورا .. فصل من عمله دون أن يحصل لاعلى النقود أو وظيفة السائق .. لكن صلاح .. لم يسلم لهذا الظلم .. تربص - للوسيط - الذى كان وحده جبانا وعديدا .. وأنتقم منه .. اذ خلفه مشجوج الرأس مكسور الذراع .. حكم عليه بالسجن سته شهور فى سجن الحدراء .. تعرف على المعلم خميس الذى يمضى عقوبة بسبب إتجاره فى المخدرات .. تعاطف معه ومنحه توصية عند خروجه - لأحد صبيانه ليعمل لديه سائقا .. وكان عليه أن يبدأ السلم (الوظيفى) من أول درجاته .. موزع قطاعى على كوبرى كرموز .. وفى أفراح الصعايدة بغيط العنب مقره الدائم مقهى أبو سته ومن أصدقائه القدامى بالشركة - صادق الرميحى - وفى المقهى يجالس - كمال الحالم - واسماعيل الصاوى ...

وصار الخواجة شارلى .. من أعز اصدقائه الجدد .. ذلك الرجل الذى يتميز بالمفهومية وينفق عن سعة .. بل ويلوح له .. بأمنية أن يكون لديه سيارة خاصة .. إذا ضاقت المعايش به .. قلبها .. تاكسى ..!

الخواجة شارلى زوريان .. لم يتوان عن إعمال ذهنه .. وهو يجالس هذه المجموعة .. أخذ يمهد بداية .. لأكتساب ثقتهم به .. ثم راح يقدح الذهن فى كيفية الاستفادة بهذه القوة التى اتاحتها له الظروف .. ووضعتها الاقدار في طريقه في مرحلة هامة من حياته التى يربطها سريا وبأقتدار .. بظرف التاريخ اليهودى الزجزاجى الزاخر بالانعطافات الحادة ..!

كان قد حدد الهدف .. فبدأ يفتح شهيتهم .. أخذ يحدثهم بإستفاضة وبطرق غير مباشرة عن الثراء عموما .. ثم عن ثراء إستافرو كرياكوس .. وتجارته المشروعة وغير المشروعة .

وقيمة الكنوز التى تصل إليه من مهربى الآثار ولصوص المقابر الأثرية - واسماعيل الصاوى يصدق بالبصمات على كل كلمة يتفوه بها (شلبى) ثم انعطف بهم إلى ذكر العمولات الضخمة التي يتقاضاها لتهريب ثروات الخواجات لخارج البلاد - خاصة بعد قيام الثورة التى أحدثت قلقا لدي الأغنياء من مصريين وأجانب ..

ويضيف اسماعيل الصاوى ..

- والخواجة كرياكو .. لا له عيل ولا تيل !

وكأنه - يدعو الشلة أن تفكر فى أن تكون الوريث الوحيد ..

فيبتسم .. شارلى .. تظهر أسنانه وبعضها له تلبيسات

.. وقال .. صادق الرميحى

« .. ربك والحق باستاذ حلمي .. وأنا أستمع الى فرص الثراء- وكيف يتحول الصغار إلى كبار والفقراء إلي أغنياء فى غمضة عين - برغم أننى لم أكن أعانى من مشكلة مثل الآخرين وكنت متزوجا .. ولى طفل .. وأعمل بشركة الغزل ولى أجر ثابت يغنيني عن الفاقة .. وأقيم فى منزل العائلة فى حياة جماعية لا تكلفنى الكثير .. صرت أحلم بهذا النعيم الذى يدعوننا إليه .. لم أجد من الشلة أحدا يتراجع .. خشيت أن تفوتنى الفرصة السانحة .. صرت مثلهم .. ليس على لساني سوى الأسئلة ..

« كيف نصير أصحاب ثروات .. مثل الذى تحكى عنهم ياخواجة .. هل هو الحظ .. ؟

كان الخواجة شارلى يضحك فيبرق الذهب فى عيني ويقول

- ليس بالحظ وحده .. ولكن بضربة الحظ ..!

نسألوه ... كيف ؟

وتتفتح مسامعنا للاستماع والامتصاص .. يشير الي رأسه .. ثم إلي صدره ويقول

- من لديه هذا .. وهذا .. يكسب !

- لدينا هذا .. وهذا .. كيف نكسب .. علي الاقل نصير

مثلك ..

- مثلي أنا .. أنا الآخر أريد هذه الفرصة ..

حملنا جميعا حوله على بساط الريح .. أرتفع بنا فى السماء، يشق أجواز الأمانى والأحلام، فى أمسيات كان يقوم فيها بالانفاق علينا ويرفض أن يشاركه أحد في دفع قيمة الطعام والخمر .. بل أنه كان يتعمد أن يترك بعض النقود لمصاريفنا الشخصية بحجة انها للمواصلات .. خاصة عندما نرتاد الكازنيوهات التي تتوسط الكورنيش .. وتضرب تحتها الأمواج .. بعد أن احتسينا عدد من زجاجات البيرة .. وزجاجة خمر كاملة .. أفصح عن خطته ..

« أن الذين يعملون أعمالا غير قانونية يخافون من القانون، وأن القانون يتمثل في بعض الرجال الذين يرتدون زي رسمي، وأن الزي الرسمي غير بعيد المنال.. »

لذلك إذا ما ارتدينا الزى الرسمى، صرنا نمثل القانون - الخاص بنا .. »

وعلي ضوء الخطة .. بدأ يشرح الخطوات .. لعبت الخمر برأس صلاح عبد الوارث - فقال

- أنا الضابط ..!

لكن الخواجة شارلى .. ضحك بجانب فمه .. وبعد أن أكمل شرب كوبه. التفت الي (كمال العادلي) أشار اليه بنفس الكوب

وقال

- هذا هو الضابط ياصلاح أما أنت فستقوم بدور الكونستابل المرافق .. دعونى أخرج الرواية بالاسلوب الواقعي لفيلم العزيمة .. هل ستنجح ياكمال فى هذا الاختبار العملى ..

اعتبر نفسك تمثل على المسرح أمام الجمهور ..

قال كمال العادلي وكأنه يتلقى - جزء من حلمه ..

ثق يا استاذ، أنا أستطيع أن ألعب كافة الادوار .. من الضابط الي اللص » قهقه الخواجة شارلى وهو يقول :

- .. سوف تقوم بالدور المزدوج .. الضابط اللص .. وستحصل علي أجر مائة فيلم

لتكوّن لك شركة انتاج أفلام العادلي وشركاه

كان يتحدث عن اللعبة بلسان أثقله الخمر والانتشاء .. فضحكنا .. بدأت اللعبه بهذه لضحكات التى كانت تصدر من القلب دون ان تمر على الرأس .. كان الرأس الوحيد الذى يزن الأمور .. يدبر ويخطط .. هو رأس الخواجة (شارلى) لايجعلنا نفيق مطلقا، حتي وهو يشرح لنا تفاصيل أدوارنا .. ونقيس الملابس الرسمية علي أبداننا .. ويستحضر اللوازم من الاحزمة الجلدية والعلامات ومسدسات الصوت .. وكان دوري .. المخبر الذى يرتدى الملابس البلدية والمعطف الاصفر .. كانت مهمتي هي معاونة الكونستابل صلاح في تفتيش حجرات المنزل والجدران

والاماكن التي يحتمل أن ينقل اليها الخواجة كرياكوس - الأشياء الثمينة .

حتى يخفيها عن العيون .. أخذ يشرح لى .. كيف أطرق الجدران وأكتشف ما بها من فراغات .

وكيف أفرق بين المكتبة الوهمية .. والمكتبة الحقيقية .. وماذا يكون خلف الاطارات والبراويز والمقاعد ذات الصناديق المسحورة .. وكذلك الدواليب .. وكيف يتم فتح الخزينة .. وإذا لم يكن حولي ما يصلح للتعبئة .. يمكن استخدام الجلابيب .. واكياس المخدات .. بربط ناحية منها لتصير زكيبة .. و .. وامتلأت نفسى بالآمال .. والخوف.. »

(١١)

تتحول الأنثى الى اجزاء تملاء الرؤي والأحلام .. تستحيل إلي نسيج يشف ويتصلب، تندس في العيون الوسنانه وخلف الجفون الثقيلة .. بصير لصورتها وملامحها من ظفر القدم حتى آخر خصلة شعر يطيرها الهواء . عناية خاصة واحساس جياش بها ..

كنت أقتطع بعض صورهن من المجلات المصورة ولكني كنت أخجل من لصقها فى ظهر الباب الرصاصى .. احتفظت بهذه

الصورة التى تتمتع بمساحة اكبر من العرى بين ثنايا المرتبة القش .. كنت أرحب بلقاء تلك الوجوه والصدور والسيقان .. ولكن لكثرتهن، تزاحمن فى ذهنى.. فلم أشعر نحو أحداهن بالميل .. تخلصت منهن جميعا فيما عدا .. (كلوديا كردينالى) كان صدرها نافرا .. وقامتها متوسطة فى طول .. (نوال) .. ووجهها أليفاً لدى عنياها شقيتين،تنسينى عينان أنيسه الجاظتان .. عيون عالم كيميا ..اكتشفت أن معظم الرفاق لهم ذوق عال فى إختيار هذه الصور ولا يشعرون مثلى بالخجل وهم يتكلمون عن الجنس ..والجنس الأخر..»

ولما كان عم صادق يعاونى فى نظافة الزنزانه عشر على كلوديا .. هو الأخر رأيت فى عينيه ذلك البريق، عندما راح يتأمل ذلك الجسد المشوق .. ولكنه قال وهو يعيد الصورة مكانها

- ما عادت الصور تثير .. يعرضون علينا أحيانا بعض الأفلام .. لكن المسرح في هذه الايام معطل بسبب الاصلاح .. كما أن التليفزيون صورته تجري إلى فوق أو إلى تحت وقد نقلوه الى «المستشفى »!

كانت هذه مقدمة ليحكى لي .. غراميات المساجين .. بين سجن الرجال وسجن الحريم من خلال دورة المياه ..

- كيف يا عم صادق ؟

- هى غراميات عيالي .. تتم بالمراسلات ، نعم لا شئ يقف في وجه الحب، فمن خلال دورة المياه الرجالي التى تقع خلف

دورة المياه الحريمي - وبرغم الجدران الغليظة - ففي المواسير الموصلة بالبالوعات توضع الرسائل في انابيب من البلاستيك أو المطاط وترسل ذهابا وجيئة .. هي رسائل صريحة فاضحة .. إذا ما سقطت إحداها في يد الادارة .. تبرأ منها الجميع .. واصحاب الغراميات الساخنة يقرأونها على الهواء والوارد .. مقابل سيجارة أو كوب شاي .. يكفي أن يعلم - المحروم - أن التي كتبت هذا الكلام أمرأة فيطلق لخياله العنان .. وكله كلام فارغ !

- ما هو الكلام الفارغ يا عم صادق؟

- كلام قبيح يا أستاذ لا أريد أن أجرح به أذنك .. تبين بعد ذلك أن بعض المساجين يكتبونه لأنفسهم .. فلدينا عدد من المساجين لاهم ذكور ولاهم أناث ..!

ثم أخذ - موقع الوالد - أخذ يحذرني من مرضى الجرب .. وامراضهم الجلدية المعدية .. وينصحني على مداومة النظافة وعدم استعمال حاجاتهم أو الاقتراب منهم .. ثم كشف عن ساعده .. وشلح عن ساقه ليؤكد لي .. أنه يداوم على النظافة والاغتسال والأبتعاد عن المصابين .. ثم فاجأني بسؤال ..

- عفوا يا حلمي يا أبني .. هل تود أن ترى عرض حي !

لم أفهم ما يقصده بالعرض الحي .. فأخذ يوضح

- في الدور العلوي يوجد منظار .. لكن الجدع (بيشة)

يؤجر الخمس دقائق على سريره بعلبة سجائر صغيرة ..

طلبت مزيدا من التوضيح وقد شعرت بالإثارة

- نوافذ الدور، ترتفع عن اسوار السجن ورءوس الاشجار وتطل مباشرة على المساكن الجديدة .. نافذة (بيشه) وأيضا (زهران) تواجهان بلكون إحدي الشقق التى يتم فيها العرض الحي .. (بيشه) و (زهران) لكل منهما نظارة تتكون من عد ستين إحداهما مقعرة والآخرى محدبة .. لديها ماسورتين من الكرتون تقعد على سرير أحداهما وتنظر إلى باب البلكون المفتوح البعيد .. هناك يتم العرض .. يضاء النور وتبدأ سيدة شابة فى خلع ملابسها قطعة قطعة وبعدها يقوم رجل باحتضانها وطرحها على الكنبة ..

- معني ذلك .. يتم التلصص عليها

- لا يا استاذ .. يتم كل شيء بالاتفاق .. والعرض يكرر كل خمس دقائق لمدة نصف ساعةعلي الاقل .. (بيشه) يعمل في المزرعة ويخرج يوميا من السجن وينسق كل شيء معهم بالمراسلات .. ويعلن عن العرض وموعده .. من يريد الرؤية يدفع أولا .. فى أيام الصيف يتم العرض مرتين في الاسبوع وفي أيام الشتاء مرة وحدة .. »

« وجدت أنه من غير اللائق بى وأنا - المتهم السياسى وإن كنت مأخوذا على البيعة .. أن أذهب الى زنزانة بيشه أو زهران وأصعد إلى سرير أحدهما وأمسك بالمنظار القرصانى وأتطلع من النافذة إلى عرض الاستراbتيز الذى ولا بد وأن تكتنفه الإثارة

ثم يرانى المساجين أتمشى في الحوش أو أشرب شاى في الكافتيريا .. وهم كما رأيت يكنون احتراما زائدا للمتهمين السياسين على أساس انهم حكام المستقبل ..

ثم يتطلعون إلى ويبتسمون في وجهى بتلك الابتسامات، التى لها مغزى خاص، وقد يسألني أحدهم عن أثر ما رأيته .. أو يذكرنى بوضع يكون قد خفى عنى إثناء المشاهدة ..

وجدت أن فى ذلك إقلالا من قدري وقدر زملائى، الذين يأخذون الأمر بشى من الجدية والالتزام .. وقد ثار فى ذهني سؤال .. لماذ يستدرجني عم صادق - وأنا الذى اشبه إبنه، إلى هذا العرض ؟

كنت على وشك أن أساله هذا السؤال .. وخشيت أن أسبب له حرجا .. ربما كان يود مزيدا من التقرب إلىّ، ويجهل السبل الصحيحة .. نحيت السؤال جانبا .. وتمسكت بالرفض .. لم يلح - صادق - كثيرا .. لكنه قال

- ما دمت قد تمسكت بالرفض .. ! إسمع ياسيدي ..

واستغرق في الضحك .. حتى بت أعتقد أن الأمر كله كان مجرد أحاديث لقتل الوقت

- كنت أريدك أن ترى العرض أولا .. وتثار .. ثم أقول لك الحقيقة

- أيةَ حقيقة ياعم صادق .. وهل العرض غير حقيقى ؟

- إنهما اثنان من المساجين السابقين .. يرتدي احدهما ملابس أمرأه ويضع على رأسه باروكة شعر ويقوم بالعرض .. بينما الأخر يمثل دور العشيق الولهان .. ويبدو الأمر طبيعيا بصورة مذهلة على البعد .. وهما يمثلان تلك العلاقة الحميمة التى يحرم منها السجين .. ولك أن تعلم أن معظم المساجين والذين يدفعون بعلب سجائرهم عن طيب خاطر يعرفون أن اللذان يقومان بالعرض اثنين من(العلوج).!

أثارتني الحقيقة .. فوافقت علي ترتيب المشاهدة .. جاء لى بالموعد .. سيتم يوم الخميس الساعة الرابعة ويستمر حتي الرابعة والنصف .. وعليه،فقد حجز لى لدى زهران - موعدا يبدأ من الساعة الرابعة وخمس دقائق وينتهى فى الرابعة وعشر دقائق .. وتأسف أن العرض من نافذة (بيشة) أفضل.إذ أن شباكه يتوسط نافذة البلكون البعيد ولكن (بيشة) - تم عنده الحجز لعشرة متفرجين .. انتظرت يوم الخميس دون ان أنساه، فى الحوش تطلعت إلى النافذة أكثر من مرة .. ولم افاتح أحد من الزملاء حتى لا يثنون من عزمى .. جعلت ذلك من أسرارى الخاصة .. ويوم الأربعاء مساءً قبل إغلاق الدور .. قلت لعم صادق دون مناسبة - غداً الخميس يا عم صادق - فقال الرجل .. آه .. آه .. أم م .. باكر الخميس ..»

كان يمر بوقته الضيق .. إذ أن أوقات عم صادق كانت تضيق وتتسع، تعلو وتهبط، يفرح ساعة ويحزن أخري .. لم أجد

تعليلا لذلك يمكن الإمساك به .. تعال ايها اللص القاتل .. قص لى باقى قصتك الغامضة .. أين توقفنا وماذا فعل بكم شلبى أو شارلى .. وقد تكوّن لديه - التشكيل العصابى؟

قال عم صادق وهو يمشى مترنحا .. كأنه يحمل الدينا على أكتافه ..

- اشعر بالضيق يا أستاذ حلمي .. هذه الحالة كانت تزورنى منذ عشر سنوات تزهق انفاسى .. أخشى أن أموت قبل أن أحيا ..

(هل يريد أن يقول قبل أن أستمتع بحياتى ..)! قلت له مخففا عنه :

- يا رجل وحد الله .. وجهك أحمر سيبُك منه الدم .. فات الكثير .. هى الأيام الاخيرة التى تمر متباطئة لانك بدأت تحصى ما يتبقى منها .. وتنتظر مرورها ..» توقف كان يريد أن يتحدث ولكنه آثر الصمت .. إذ فتح فمه وأغلقه .. أشاح بيديه وأنصرف .. ندهت عليه .. كان قد نسى أن يحصل على السجائر الثلاث لكنه مضى دون أن يلتفت نحوى .. كنت واثقافى أنه سيأتى الى فى صباح الخميس ضاحكا كعادتة ولدية كثير من الحكايات الطريفة والمثيرة .. كما أنه سيصحبنى الى رؤية العرض الحى لأرى قدرة (العلوج) على تمثيل لعبة الحياه والحب ..!

(١٢)

.. يوم الخميس بدأ كئيباً ..!

* هروب - سند مغماطيس - مهرب المخدرات الذى كان محبوسا احتياطيا على ذمة قضية جلب سفينه تركية مليئة بالمخدرات والتى أنزلها بالساحل الشمالى وأثناء المطاردة من قوة مكافحة المخدرات .. قتل بمسدسة أحد الجنود وتم إلقاء القبض على طاقم السفينة - الذى أقر بعضهم بأنهم يحملون بضاعة خاصة به .. وأولى القبطان بأوصاف - سند مغماطيس !..

كما تم إعدام - حارق طفل خصمه .. فى ساعة مبكرة ..

لذا فقد ساد أرجاء السجن هذا الوجوم الثقيل .. وبالتالى فقد تم الغاء العرض « دونت كافة المعلومات التى وصلتنى عن - سند مغماطيس - من خلال مناقشات الرفاق الساخرة .. وأحاديث عم صادق معي .. فالرجل كان يعيش داخل السجن كأنه يعيش في فندق سياحى .. يرتدى فوق البيجامة الحرير .. روب - دى شمبر ملون بألوان رقبة الحمامة .. رأيت غرفته والضرابية الحرير الحمراء المفروشة على سريره الخشب ..

كان قد منحنا طاولة بقواشيطها كاملة وعدد إضافى من زهر النرد - كما كان يعطينا مجموعات من المجلات البيروتية الملونة .. وقيل أنه قد خصص مظاريف مغلقة لعدد كبير من الساجنين والضباط .. تصلهم كل شهر من خارج السجن حتي يُعنى به وتراعى مطالبه .. وأنه فى شهر رمضان الماضى كان يطلب

للمساجين والسجانين صوانى البسبوسه والكنافة من أفخر المحلات .. ليأكل منها الجميع .. وأنه دأب على الخروج كل أربعاء لعلاج اسنانه من حالة التسوس فى مستشفى أميرى .. ويقال أنه حصل على هذا العلاج الدوري حتي يلتقي كل مرة مع إحدى زوجتيه وأنه كان يختلى بها فى إحدى حجرات المستشفى ويدفع لمرافقة - خمسين جنيها .. لذلك فقد كان العساكر يتصارعون من أجل الفوز برفقته فى مأمورية العلاج الأسبوعية .. وأنه أثناء خروجة - والعودة .. اكتسب الثقة التي سيستغلها فى الافلات من المراقبة بعد أن قام شقيقة الذي يشبهه إلى حد كبير بتجهيز جواز السفر وحدد له موعد قيام الطائرة الذي اتفق مع نفس يوم الهروب .. وأنه كان يودع الجميع ويوزع الملابس ومخزون السجائر الأجنبيه - وأعطي أحد الرفاق المقربين له .. راديوترانزستور وعلبة بها عشرين حجر بطارية صغير .. ولما سأله مندهشا - لماذا كل هذا يامعلم سند؟

قال له : لأجل أن تذكرنى .. فسأقوم بعمل عمليّة

عاد يسأله : وهل العمليّة خطيرة لهذه الدرجة؟

قال سند مغماطيس : أدعى لي بالتوفيق ..

قال الزميل : ولكني أعلم أن عمليات الأسنان والفم ليس بها خطورة تذكر ..

فلم يجب .. ولكنه أمسك يده وقال « العمليـة الصغيرة عندى لها نفس إهتمام العملية الكبيرة » .ولم يفهم رفيقنا مغزي

هذا الحوار إلا بعد أن هرب (سند) وتم حبس الشاويش عسران الصعيدى مكانه .. وهو سجان طيب،كان قد فرح أنه أخيراً حصل على مرافقة المعلم سند، حتى ينفحه الخمسين جنيه المعتاد منحها، وكان يبنى آمالا عديدة على هذا المبلغ،وعندما صادروا ما معه من نقود .. وجد أن بجيوبه أربعة جنيهات ونصف فكة .. ليس بينهم سوي جنيه واحد صحيح .. كان يقسم بالطلاق .. أنها فلوس بيته وأكل أولاده .. ويسأل من رافقوا سند مغماطيس .. هل يدفع المعلم سند فلوس فكه ؟. ويطالبهم بالكلام .. لكن الجميع كانوا يهزون (رؤوسهم) واكتافهم نفيا لعدم معرفتهم بذلك، خوف من المساءلة القانونية .. وعندما زج بالشاويش عسران في أحد الزنازين .. كان يلطم رأسه بكلتا يديه ويصيح .« يا خراب بيتك يا عسران .. »

وأمام كم المعلومات التى توفرت لى .. أخذت أهندس موضوع قصة طويلة،حول عالم تهريب المخدرات وأساليبهم .. مستخدما ورق الدشت الذى حصلت عليه من صانع الشاي بالكافتيريا .. دفعت له من أجله خمس سجائر .. فحرص على ان يحتفظ لي بكل ورق التغليف الذى يفضه عن باكوات الشاى .. جهزت كمية كافية من الورق وعندما شرعت في كتابة القصة متجنبا مزالق المغامرات والمطاردات وضرب الرصاص .. على أن أبدأ من لحظة هروب - سند مغماطيس - ودخوله مطار النزهه وركوبه الطائرة .. وصعودها الي الفضاء .. توقف القلم .. إذأن مأساة (شوقى القرداحى) إحتلت ذهني وسيطرت على تفكيرى .. فأنزوى سند مغماطيس فى انتظار أن - أخترع له ضابط مصرى -

لديه إمكانيات چيمس بوند .. يطير خلفه الى أوربا ويحضره فى أحد الصناديق الدبلوماسية في غفلة من عصابات المافيا التى تتدلل على كبار السياسيين .. ولأنى كنت أتحمس لموضوع ويسيطر على تفكيرى موضوع آخر أو موضوعات أخرى .. فلم أكتب سوى بضع ملاحظات .

(١٣)

... مالفت نظري .. ونظر رفاقى السياسين .. وكان مثار تعليقات بيننا .. أن المساجين على كافة تهمهم .. نشالين وحراميه ومزورين وقوادين ومحتالين الى آخر ما يتم تجريمة فى قانون العقوبات .. كانو جميعا دون إستثناء ينظرون الى - شوقي القرداحي - حتى وهو في ملابس الموت الحمراء .. باحتقار شديد .. بل أن بعضهم - ومعظمهم يجهلون الثقافة والتعليم .. كانوا إذا مروا بجانب (الجاسوس) يبصقون بشدة على الارض - تعبيرا عن إستياؤهم منه - وإذا نهرهم المساعد علوان واشاح أن يبتعدوا عنه - قال أحدهم

- لماذا تدافع عنه يا حصّول علوان .. إنه أبن كلب نذل كان يتجسس لحساب اليهود »

يضطرب الرجل .. ينكس وجهه إلى الارض .. وربما اختصر

فترة التشميس وطلب العودة الى زنزانته .. لما تكرر وجودنا بجواره والتحدث معه .. كان بعض المساجين يرقبوننا فى زهول .. ثم يسألوننا بعتاب غاضب،كيف تتكلمون مع جاسوس خائن .. يبيع بلدنا. أثناء حرب الاستنزاف،للاعداء . جهل يريدنا أن نبقى إلى الأبد مهزومون ..

رأيت الدموع تترقرق فى مآقيه .. ثم تنسال على كراسى خديه .. تلمع على وجهه المحمص .. كان الرجل يغالب انفعالات عديدة متصارعة .. وكان قصير القامة .. له بدن موظف أرشيف يختلط صدره ببطنه المكورة التى تتثنى عدة ثنيات إذا ما جلس على كتف سلم (المسرح)،نادرا ما كان يدخل إلى زحام الكافتيريا. كان يفضل المشى فى الطرقة التى تقع بين الملعب الترابى وجدار ورشة النجارة .. يصل إلى مدخل المخبز .. ثم يكر عائدا بنفس الخطوات .. يمضي الثلاثين مترا تقريبا ويستدير فى نصف دائرة .. حتى يدور معه الصول علوان مقيد الرسغ معه .. يمسك بكفه أحيانا، أو يفصل حديد القيد بينهما .. كان يدخن بشراهة

-عم شوقي هل أنت برئ ؟

قال دون أن ينظر فى عيني :

- ربنا يعلم يا حلمي .. إن كنت برئ أم مذنب .

- أتعنى أنك مذنب

- أعنى أنها ورطة .. وكان يجب على القضاة أن يقدروا ..

- ألم يكن فى استطاعتك أن ...

رأينه يهز رأسه نفيا فى أسى .. وكأنه كان يعلم باقى سؤالى .. قال الصول علوان متبرماً ..

« الجدع (موش ناقص) بالراحة عليه والنبى » وأخذ يعض على شفته،لكن شوقي القرداحى - أكد - قوله (بصدقنى ياحلمى) - بأنه قد أبلغ ضابط المخابرات المصرية .. وأن الضابط التقى به مرة واحدة .. وأبلغه الضابط،بأنه سيعرض الامر على المسئولين وأنه سيلتقى به مره أخرى - أراد أن يستفسر كيف سيتم اللقاء الثانى،أبلغه الضابط،بأنه سيدبر هذا اللقاء بمعرفته،وأنه سيعرف كيف يصل اليه.. »

« لم اقتنع بهذه التخريجات .. التي ربما أثارها محامية إثناء المحاكمة .. ولكنى كنت أستمع إليه بشغف وفى تصورى أن كل كلمة يقولها (ميت) جديرة بالإستماع وتستحق الإهتمام .. »

(١٤)

شوقى القرداحى .. بمؤهله التجاري المتوسط - يعمل في شركة المطاحن .. يرقى حتى يصير رئيسا لأحد أقسام الشركة .. حياته تسير كحياة أى موظف مقيم فى اطراف المدينة،متزوج من أمرأة .. تقود طوق حياته بمجدافها القصير .. والطوق يتسلمه تيار

الحياة لهادئ فى قاع الطبقة الوسطى .. يسير الهوينا .. لا شئ يميزه عن جيرانه فى الحى، أو زملائه فى العمل . يرزق بولد وبنتين .. وكأن الزوجة أنتظرت حتى يحصل أبنها البكر «سعيد» على دبلوم الصنائع الثانوى ويعين فنى بشركة النحاس .. ثم تموت .. يتساهل فى تزويج أبنتيه صغارا من أقارب له فى ريف المنوفية .. ويفرغ عليه البيت الذى كان يمتلئ بالحركة والحياه .. فلا يجد أمامه سوى التفرغ لعمله ورعاية أبنه وحثه على الزواج .. لكن عندما يتم إستيراد ماكينات .. لصناعة السلك وسحبه علي البارد في الشركة، يتطلب العمل إرسال بعض العاملين للتدريب فى ألمانيا على تشغيل تلك الماكينات فى الشركة الموردة .. يفرح إذ وقع الاختيار علي أبنه (سعيد) ليذهب مع الفوج للتدريب لمدة ستة شهور .. سيعود بعدها - وقد يزيد أجره أو تتضاعف حوافزه .. ليتزوج في نفس المسكن .. وقد يرزق بأولاد يردون عليه الروح ..!

لكن سعيد .. ذهب معهم إلى المانيا .. عاد زملائه .. وهو لم يعد .. قال أعضاء البعثة .. أنهم تعرضوا للعديد من الإغراءات .. وأن سعيد ضعف أمامها وهرب للعمل هناك فى أحد المصانع بألمانيا الاتحادية ..

لكن الرجل كان قد إنزلق الى حالة من التوتر الحزين وسيطرت عليه الافكار السوداء، بأن ولده قد تعرض لحادث أودى بحياته .. انثالت على رأسه الهواجس .. وبدأ رحله العذاب المفعمة بالمخاوف والآمال .. كان همه .. أن يتأكد بأن سعيد عائش .. ثم

بعد ذلك يعمل على إسترداده .. فقد نسج معه آمال عظيمة في مصر .. كيف يتجاهلها إلامرغماً..؟

حصل على ما قدرله من العناوين في المانيا .. أرسل عشرات الرسائل .. يستفسر عنه .. ثم خاطب السفير هناك .. يرجوه آن يعاونه فى البحث عن أبنه ليطمئن قلبه ..

من عشرات الوسائل التى أرسل بها .. تلقى ردا من احدى الشركات .. بترجمه الرساله تبين- أن الهر سعيد شوقى .. قد عمل لديهم لمدة شهرين ثم انقطع .. وبتحديد المدة .. ظهر أن ذلك كان فى أعقاب هروبه من فوج التدريب ..»

« إخص عليك يا سعيد .. رسالة واحدة منك تريح خاطري تطمئنى عليك .. هل لازلت علي وش الدنيا ..»

بعد ثمانية شهور مضه .. حضر إليه أحد زملاء سعيد بالشركة ليبلغه أن أبنه يعيش فى ضاحية من ضواحى إحدى المدن الصناعية .. وأنه يعمل بأحد المصانع الكبرى فى ألمانيا وهو على وشك الزواج من ألمانية .. ولأسباب خاصة لا يستطيع أن يرسل إليه برسائل مباشرة على عنوانه - وأن الذى حمل هذه الرسالة الشفهيه شخص قادم من المانيا في أجازة قصيرة .. ترك رقم تليفونه بالقاهرة .. ويأسف لضياع الرسالة التى كتبها سعيد .. !!

حصل الرجل على رقم التليفون - قشة الغريق .. تفرغ للبحث عن عنوانه بالقاهرة وسافر إليه .. الزيتون .. هاهى محطة البنزين .. عمارة الفردوس شقة ١٨ وطرق الباب .. فتحت الباب

سيدة مسنة .. سألها عن الذى جاء من ألمانيا .. توجست .. حكى لها التفاصيل .. أبلغته أنه سافر فى طائرة المساء .. وعندما طلب منها عنوانه في ألمانيا للكتابه إليه .. أنكرت معرفتها به .. ثم احالته الى عنوان عمه (بسطا) فى معرض سيارات بمصر الجديدة .. حكى مرة أخرى كل التفاصيل .. فأخرج له الرجل عنوان (بيتر) فى المانيا وحذره من أن أبن أخيه (بطرس) لا يستقر في مكان .. فلا ينزعج إذا ما تأخرت عليه ردود الرسائل ..

لم يعلق الرجل ولم ييأس .. لأنه كان قد عزم على السفر خلفه إلي المانيا مضمرا أن يتم ذلك على وجه السرعة .. وقبل أن تأخذ المشاغل (بطرس فانوس) وأن ذلك لابد وأن يتم مهما كان الثمن حتي لا يفلت منه هذا الخيط الرفيع ..

«ماذا بقى لى هنا .. لا شئ .. لماذا استكين لهذا القلق .. غارقا في الشكوك التي تحيل حياتي الي جحيم ..»

وأخذ يعمل بهمه لإنهاء إجرءات السفر..

كان السفر الي الخارج قد حددت له اللوائح الرسمية مبالغ زهيدة لا تستقرئ الواقع أو تتماشى مع أرتفاع الأسعار .. وما يطرأ من مفاجآت غير متوقعة

ولم يكن لدي شوقي القرداحى.. تلك الحيل فى أن تسبقه بعض الأموال وتنتظره فى أحد البنوك هناك .. تعبد له طريقة وتكون له عونا في الغربة إذا ما استطالت المدة - المحددة بأسبوعين للسياحة ..

كما أن الرجل اعتقد أن مشوار ألمانيا لن يختلف كثير عن مشواره من الاسكندرية إلى القاهرة كان مع بطرس .. فيدله على عنوان أبنه سعيد .. ويومين لدى سعيد .. ثم يعود مرتاح البال، هنا يصير الاسبوعين ..زمناً فضفاضاً

سافر شوقى القرداحى من الأبوب الرسمية ..وليس فى مفكرته أسماء معارف أو أصدقاء هناك .. إلا بيتر الفونس الذي لا يعرفه .. كان قد رأي صورته علي جدران المسكن .. أشار إليه .. فقالت السيدة العجوز .. نعم هو بيتر .. عندما كان طالبا في الجامعة الامريكية..، هو لن يختلف كثيرا عن هذه الصورة لتي رآها .. قد يسمن او ينحف قليلا ..!»

«كتبت فى ورق الدشت .. فيما يشبه المفكرة .. لأتذكر تلك التفاصيل التى إستمعت إليها «بداية ضياع شوقى القرداحى..

سقوط الرجل من فوق الدحديرة»

حاولت أن أتمثل تفاصيل الرحلة .. ومشاعرة .. التى تمور في نفسه .. والتى يتأثر بها عند وصوله الى ألمانيا .. وقد عصفت به أحساسيس الغربة واليتم .. خاصة وهو في الطريق - إلى الامل الواهى - المغلف بالضباب .. إلى مقر إقامة بطرس فانوس الذى أضاع رسالة إبنه .. لعله وجدها .. أو يدله إلى عنوانه .. وربما تخيل أنه عندما يطرق الباب .. سيفتح له .. سعيد .. فيشعر بدوار النشوة ..

(١٥)

[الزمن ..]

فى مناقشة متشعبة مع الرفاق - من هذه المناقشات التى كانت تفتح أمامى نوافذ على الثقافة بفروعها المختلفة، عالم من المتعة الفكرية تأكد لى .. أن المراكز الخمسة ليسوا وحدهم .. حملة الرءوس - كان يقودها - الدكتور الجامعي- الذى كان لا يختلف كثيرافى مظهره .. وفى أسلوب حياته العادية عن - أحد مساجين النفقه الزوجية عندما يتلعثمون .. ويتغاضون عن حلاقة ذقونهم .. ويبقون فترة الحبس عابسي الوجوه .. فى أمتعاض من هذه الزوجة السابقة التى كانت يوما في أحضانه يلثم وجنتيها .. ثم - يهون عليها - وتلقى به في السجن، من أجل بضعة جنيهات مستحقة يعجز عن الوفاء بها .. كان (الدكتور) فى حياة السجن العادية يسير فى آخر الصف أما عندما يتكلم .. وننصت له .. فهو يتقدم .. الجميع .. هنا لا أتذكر أسمه .. بل لا يجرؤ أحد إلا أن يناديه .. بلقبه - أمسك بيدى وجذبني إليه .. وكأنه يطلب مني بصفة خاصة .. أن القي بنظرة فاحصة على بئر الزمن ..

«عقوبة السجن .. إقتطاع جزء من زمنك الحياتى مقابل الانحراف عن (نظم) لم ترضي عنها أو جنوح لضعف إنساني خاص .. هل يدفع (المسجون) هذا الزمن عن طيب خاطر أم أنه - كما اعتاد - يقاوم .. ولا يترك لهم إلا ما يستغنى عنه .. مختلطا - بزمنه - الأصلى ؟

هل نحن .. نخـبـر التـغـيـر فى الزمن من الداخل أم من الخارج/ ؟مسحت صفحة ذهنى - كما يمسح سائق السيارة الزجاج الأمامي ليري الطريق بوضوح .. لكن الرؤية كانت لا تزال ضبابية غير ملائمة ..

هل يدرك (العقل) التغيرات الأساسية عن طريق الزمان .. أم عن طريق سلسلة متوالية من صور الأمكنة والأحداث .. ؟

« مهلا يا دكتور .. نريد تفسيرا .. أو أسئلة أسهل .. »

- هل يستطيع وعينا أن يحتوى على خبراتنا الشخصية الماضيةكلها .. والذاكرة لا تعدو أن تكون مصفاة كثيرة الثقوب؟

رفعت رأسى من البئر .. إذ انه كان مظلما وسحيقا .. قال المركز الأدبى وهو من المغرمين بالتوضيح بحكم عمله كمحام ..

- يا حلمى .. القي بحجر ..

ألقيت الحجر فى البئر .. وانتظرت لأسمع صوت وصوله إلى القاع .. طال انتظارى ولم أسمع شيئا فبدت على وجهى الحيرة .. خلت اننى الغبى الوحيد بينهم .. هل أهز رأسي كأنى فاهم .. ؟

قال الدكتور : إما إنك روائى بالفعل أو جامع كراكيب قديمة .. !

قلت : أود أن اكون الاثنين معا .. !

فأخذ يحدثنى عن - هنرى برجسون وكتابة (المادة والذاكرة) وعن مارسيل بروست، قال المركز الغذائى : مهلا يا

حلمي .. لا تبتلع شيئا بدون مضغ !

« الزمن ، تحت تأثير الأحداث العرضية العابرة المنتهية إلى (الحاضر) وفي حيزه الضيق (السجن) يستطيع أن ينفخ في وعاء الحاضر بأنفاس الماضى .. يعيد له الحياة .. إذ أنه يأتى إليه طائعا فى آلاف التفاصيل، متدفقا .. فإذا بالماضى يجعل الحاضر أكثر دفئا ..

« قلت فى نفسى .. هل يغلف الدكتور .. التيار السلفي..؟

- إن كل مياه البحار التي تتبخر بفعل الريح وحرارة الشمس لا تذهب بدداً لاشئ يخلق من عدم .. ولاشئ يعدم !

« .. هكذا .. قد يتهم بالذندقه .. » الدكتور .. سمعني اقول ...آآآآه

مسح نظارته برغم أنه يتحدث وهو مغمض العينين .. ثم خصني وحدى ..

« ثمه أسطورة إغريقية تصور فتاة عاشقة أرادت أن تسجل ظل حبيبها الجندي قبل أن يذهب إلي ميدان القتال على حائط لتحتفظ بصورته إذا ما غاب عنها،تنظر إليه .. »

قلت : إنه الفن ..

ارتاحت أسارير الدكتور ومنحني سيجارة من نصيبه .. ومن بين احتجاجات الزملاء الأذكياء الذين كانوا يضيفون الكثير أثناء

المناقشات ..ضحك وقال :

- دعوا حلمي يفكر .. فالفن .. والتعبير .. إبداع لمقاومة الزمن .. هذا ما يستطيع أن يفعله الانسان ليقاوم الفناء والنسيان ..

سأل أحد المتطلعين إلي السيجارة الممنوحة لى

- هل الفن يعبر عن غريزة البقاء كالتناسل ؟

وقال المركز الترفيهي

- أم انه تحد للزمن الجائر ؟

قال الدكتور : بعض الفلاسفة يرون أن الماضى بالنسبة للحاضر خيبة أمل .. والمستقبل بالنسبة للحاضر طموح سيتحول بدوره إلى خيبة أمل .. لكن فلندع العدميين جانبا وننظر إلى شرقنا الذي هو - بعكس آراء المتغربين - لازال يتوثب بالحيوية تجاه البعض العدميين .. ولكنه استطرد: أنظروا .. بدون أن يدرك - جموع المساجين فعل الزمن الفلسفى .. هم يعملون على تغير فعل الزمن من الداخل .. يدركونه بالحدس .. فيصير معظمهم - الذين يتحدثون على الأقل - رواة .. لروايات حديثة - يستعيدون بها الزمن من خلال عملية التذكر الدقيقة يبعثون الماضى حيا .. ثم ينقونه من بكتريا العفن والتحلل باستمرار حتي يواكب الحاضر .. لان الحاضر بالنسبة لهم يوم واحد .. يتكرر ويتكرر .. بتلك التغيرات الخفيفةإلى حد الطمس .. بل أن بعضهم يستحضر الزمن

فى جزيئات مكورة على نفسها وفى غير تتابع منطقى .. مما يجعل رواياتهم .. آشد الأشكال حداثة .. الفرق .. ان لا أحد قدم · نظريته ..)

وفى وحدتى .. أخذت استعيد كلمات الدكتور واتمعن فيها .. توقفت عن قراءة (الحرب والسلم) .. كنت اقرأها للمرة الثانية .. قرأت ثمانين صفحة فى وصف حفلة راقصة وأخذت أتأمل وقع الزمن على « شوقى القرداحى» الذى ينتظر الموت ..

كل مطلع قرص شمس جديد.. يمتد عمره يوما كاملا .. فهم اذا ما قرروا تنفيذ حكم الموت لن يفعلوه .. إذا ما بزغت الشمس وأفترشت أشعتها الصفراء الصباحية جدران السجن الشرقية ..

(١٦)

فى رواية عم شوقى .. تجنبت آلاف التفاصيل الواقعية البلزاكية .. ووضعت هذه التفاصيل فى كومة واحدة في ركن الزنزانه بجانب جردل البول وجردل الشرب .. لنهبط معه أرض الجنس الآري الذي صنف يوما على رأس الشعوب الاخري .. نسير فى طقسهم الرصاصي مع شوقى القرداحى الذي كان كالأبكم وهو لا يفقه شيئا من لسانهم .. وليس لديه سوى - بضع كلمات انجليزية من أيام الابتدائية القديمة .. كما أنهم في الغالب .. دأبو

علي عدم الاختلاط بالغرباء .. ويتركونهم عادة لعسكري البوليس .. هو الذي من طبيعة عمله الصبر على الجليزية الغرباء الركيكة .. ويدلهم الي الشوارع التائهة .. قبل حلول المساء،واختفاء البشر فى البيوت الجمالونية الخالية من الشرفات والمغلقة بإحكام المناخ البارد .. فلا يتبقي فى الشوراع إلا السيارات الفارة،من غول البرد .. واضواء الفوانيس التى تلمع فى الارض المغسولة .. ولا تقوى علي تبديد أبخرة الليل وضبابه .. فلا يتبقى للغريب،الا أن يدلف إلى قبو، به - حانه دافئة .. يحتمى بها من وحدته . وقد يشير إلى شئ يأكله أو يشربه .. إذا ما تعذر عليه النطق ..

النقود الرسمية المقررة لا تتحمل التلكؤ فى الطرقات والبارات .. ولا تتحمل النزول بعيدا عن الهدف وركوب التاكسيات التي زودت بأجهزة تفتيش جيوب الغرباء وتجعل العدادات تصاب بالجنون، ما فى جيب شوقى القرداحى - من أجل الطريق الموجز، للوصول إلى ضيافة ابنه سعيد، وكأنه سينتظره في المطار،ويحمله فى سيارته الخاصة إلى منزله،ثم يتكفل به حتى يعود ونقوده بخيرها كما هى ..!!

لسؤ حظ - شوقي أفندي،عندما قصد السيد (بيتر) المصرى - أخبره الشاب الألمانى الذى يشاركه السكن - مستعينا باحد الأتراك - يعمل حارس للبوابة العمومية،بأن بيتر فى مأمورية جوالة فى انحاء ألمانيا الجنوبية،لتوزيع نوع من البضائع وأنه سيعود بعد خمسة أيام علي الأقل .. وتركه للرجل المترجم واغلق الباب؛ صحبة التركي إلى - أوتيل مناسب لحالته .. فى حى

مكتظ به شوارع ضيقة، وحوانيت ومقاه خلف الابواب الزجاجية .. لا يختلف كثيرا عن أحياء الاسكندرية البحرية ..

ألتقطت أذنيه بضع كلمات باللغة العربية فأطمأن قلبه .. أضطر أن يدفع ثمن أقامة لسته أيام دفعة واحدة .. واستسلم فى غرفته لعملية حسابية، لمصاريف اليوم الأول، رأى أن نقوده بالكاد تكفيه عشرة أيام .. على أن لا يتحمل مصاريف إضافيه طارئة .. بعدها . عليه استخدام تذكرة العودة .. دون تردد ..

وكان يتمني أن يعود وقد فرغ من أخرانه بعد أن تجشم هذه الرحلة الطويلة والغرم المادى الذى لا يقدر أمثاله على احتماله ..

كان يحتفظ بخطاب المصنع الذى أفاده، بان ابنه عمل لديهم بعض الوقت .. هبط من غرفته يسأل - موظف الاستقبال بالفندق - عن موقع هذا المصنع، وكيفيه الوصول إليه .. فى محاولة أن يشغل وقته، حتى يعود (بيتر) من عمله، ولم يجد الموظف الذي استقبله .. وجد مكانه شخصا آخر - تبين بالتعرف عليه أنه أحد ملاك الفندق .. إستجمع من قاموس لغته الانجليزية بضع كلمات فإذا بالرجل يبتسم ويحدثه باللغة العربية .. ما كاد يتعرف علي مشكلته حتي أبدى استعدادا لمعاونته..

كان رجلا نحيلا .. له شعر أسود مجعد وبشرة بيضاء تميل إلي الزرقة، وعينان واسعتان مكحلتان تحت حاجبين ثقيلين .. دون أن يسأله شوقى عن موطنه الأصلى .. قال له أنه سورى لبنانى .. أو ان أصل عائلته من اللازقية .. لكنه ولد بطرابلس لبنان .. وأن

السعى وراء لقمة العيش، يتطلب الجري، الذى أوصله إلى هذا المكان - واصر على معاملته كضيف - هذا المساء على الأقل - عزمه على العشاء وقدم له عقب تناول العشاء - قهوة، كما كان يقدم له السيجارة تلو السيجارة، كعادة الشرقيين في إكرام ضيوفهم .. ووعده بأنه في الصباح الباكر سيصحبه إلى المصنع المبين فى الرسالة ..وتمنى له التوفيق - واصر أن يوصله حتي بداية السلم - وتمنى أن يعشر على ولده (بإذن الله) .. نام شوقى أفندى - ذلك المساء قرير العين - كان الرجل قد طمأنه وهدأ من خواطره .. استفسر منه عن كل شئ فى حياته . كان كالطبيب النفسي - جعله يحكى ويحكي .. حتي أزال من داخله كل التوترات .. الكلام كان يصحب معه اثناء خروجه من صدره، كثيرا من متاعبه وآلامه .. حتى وإن كانت الأحاديث شخصية عن نفسه وعائلته .. وعن سعيد - وعمله فى شركة النحاس وطبيعة ذلك العمل .. وأجره .. وامكان ترقيته إذا ما تحول إلى - التصنيع الثقيل .. المركبات والدبابات. ومواسير المدافع - صحح له هذه المعلومات على الفور - بان الشركة تنتج رقائق النحاس والألمنيوم .. وليس بها اقسام لصناعة المدافع والدبابات .."

بدا له بأن هذا الرجل الشامى يريد ان يستثمر أمواله ويتمني أن يستعين به وكيلا له في مصر كما أنه سر بان - سعيد - يعمل في المانيا فنيا ..وإنه - انشاء الله - سيكون فى رعايته كان يضحك ويوالى - أبو سعيد باللفافات وما يرطب حلقه ويساعده علي التذكر، وكان لاينى يطمئنه .. بقوله:

- اننا اخوة .. وفى الغربة الجيب واحد .. ولن اتركك حتى تعثر على ولدك . هى معرفة خير - شو يا أخي؟ رب صدفه خير من ألف ميعاد - وشوقي افندي يتأثر؛ تكاد الدموع تطفر من عينيه .. يشكر الله أنه عثر على - رحيم الطرابلسى - الذي جعله يتخلص من إحساس الغربة والضياع وبث فى نفسه الأمل...

(١٧)

فى الصباح .. جاء إليه حتى باب الغرفة .. طرق الباب .. وكان (شوقي) قد ارتدي ملابسه واستعد .. اعتذر له - وهو فى اشد حالات الخجل - بان السيارة؛ حدث بها عطب؛ وأنه أرسلها للتوكيل للاصلاح.. وحتى لا تتعطل بهما في الطريق وانه في انتظار - مكالمة بانتهاء اصلاحها .. فلا يقلق - لكن السيارة تأخر إصلاحها يومين- وفي اليوم الثالث ذهب به إلي المصنع في المدينه المجاورة .. كان وصولهما بعد انصراف المسئولين .. طمأنه بأنه لن يضيق من العودة به مرة اخرى. ويكون مسرورا؛ أن يفعل ذلك عشر مرات؛ ومن باب إزجاء الوقت في الطريق .. وعند تناولهما مشروبات فى الاستراحات- أن يسأله رحيم .. وكان شوقى .. يستفيض؛ فى الاجابات لملأ فترات الصمت بينهما؛ وهما في السيارة أو خارجها.. الحديث عن النفس شيق .. وعن الوطن فى الغربة له طعم خاص؛ فى اليوم الخامس .. صحبه - وهو يعرب عن سروره

أيضا - الى مسكن بيتر - وتمكنا من مقابلته بعد أن عصفت به الظنون بعض الوقت .. بعد زوال دهشة بيتر - أبلغهما بأنه وأن كان يشرفه أن يكون صديقا لسعيد - إلا أنه ليس صديقه .. وأنه قابل سعيد الاسكندراني في مشرب يرتاده العرب؛ فقد كان يبحث عن مسكن يقيم فيه. علم من الساقي أنني سأمضي اجازة اسبوعين في مصر. فطلب أن يحل محلى فى الشقة .. لكن شريكى الألماني رفض.. فحملنى رسالة كتبها على عجل؛ فى المشرب - فلم أتذكر منها سوى اسم - المصنع بالاسكندرية؛ واسمه هو .. سعيد القرداحي .. لغرابة اسم القرداحي تذكرته .. وهذا ما كان .» واعتقد أننى قمت بالسفر خصيصا الي الاسكندرية قبل عودتى بيوم واحد - مقابل ضياع الرسالة منى وهذا كاف .» وخضع بيتر بصبر نافذ؛ لعدد من الأسئلة .. وعندما رأى ملامح (شوقى) يطوف عليها اليأس .. وضع أمامه عدد من العلامات المضيئة .. جرسون مقهى العرب - واسم أحد الأتراك .. واسم لشخص مغربى .. كانا يجلسان معه وهو يكتب الرسالة على الطاولة .. أعطاه الأسماء الأولي .. أو الاخيرة .. التى تذكرها؛ ثم اعتذر بأن عمله يتطلب منه السفر .. وإلا كان حضر معهما، وجد في البحث ..

انقسم الجذع إلي عدد من الفروع .. وكان على (شوقى) أن يمضى مع كل فرع إلى منتهاه .. لكن رحيم الطرابلسي؛ طمأنه بأنه سيكون معه حتى النهاية .. وأنه يثق .. بأنه سيعود الي مصر مع أبنه مرتاح البال .. !

(١٨)

بإنقضاء يومين آخرين من الاسبوع الثاني - كانت نقود - شوقى - قد أوشكت على النفاد، أخذ يحتجب في غرفته ويمتنع عن النزول إلى المشرب .. وانشغل عنه - رحيم - وفى اليوم العاشر. كان لابد وان يتخذ قرار العودة - ويكفيه شهادة بطرس بأنه قد رآه منذ فترة قصيرة، وهذا فى حد ذاته إنجاز .. كما آكد شخص آخر أن شخص قد رآه ، لكنه لا يعرف شئ عنه ..

أخذ يقيّم ثمن الخاتم الذهب والدبلة والساعة وبعض الملابس حتى يمكنه أن يستكمل الاسبوعين المقررين .. أخذ يبحث عن - رحيم الطرابلسي .. أفادوه بأنه قادم غداً، وفى الغد أفادوه أنه قادم غداً - في اليوم الثانى عشر .. ظهر رحيم .. أخذ يهدىء من روعه، اضطر أن يصارحه بحالته الماليه .. وكيف انه تخلى عن بعض الأشياء .. عاتبه بشده، انه لم يكن صريحا معه منذ البداية.. وأقترح عليه أن يترك الفندق، إلى مسكن يملكه - وعندما وجد منه ترددا قال له ..

«أنا كرجل أعمال - اقترح أن الأيام التى أستضيفك فيها - تعتبرها قرض - تردها لى عندما أزورك فى مصر .. لذا عليك أن لا تشعر إلا بشعور المقترض .. « وتضاحكا .. »

فى نفس المساء.. صحبة - رحيم - إلي ضاحية سكنية هادئة .. تركه فى مسكن، يشبه الشاليه، تحيط به حديقة صغيرة ذات أشجار عارية - فى رعاية - سيدة - فى متوسط العمر ما

زالت بها مسحة عاليه من الجمال .. قدمها له علي أنها - اخته فى الرضاع..! واعتذر - بكثرة مشاغله - وانه سيفرغ من العمل الملح ويأتي إليه .. ونصحه بأن يعتبر البيت بيته. بينما كانت السيدة تحيطه بكلمات الترحيب - وعناية خاصة فى مجلسه - وتقدم له المشروب الساخن .. وقف رحيم الطرابلسى عند الباب وقال

[كن مطمئنا .. سنبحث عن سعيد .. وسنجده .. حتى لو أضطر لأن أذهب إلى ألمانيا الشيوعية] وضع كفه الأبيض النحيل على صدر المعطف الاسود .. وقال

- هذا وعد يا شوقى افندي ..

(چينا) استمرت تحيطه بالترحاب والاهتمام .. في يوم وليلة زاحمت ابنه سعيد - بداخله - ثم احتلت معظم ذهنه وتفكيره، كانت تتحدث العربية بلهجة مغربية - وترتدي ملابسها بطريقة باريسية .. ولها اسلوبها المنطق الذي لا يترك لعقله المكدودفسحه للارتعاش .. بعد أن جهزت المائدة .. وعاونته أن يأكل من هذا الصنف ومن ذاك الطبق .. سهلت له أن يشرب قليلا من النبيذ الذى يساعد على الهضم ثم بضع قطرات من زجاجة الخمر حتى يطرد من رأسه الهواجس .. تردد ولكنه شرب .. بسطت له أحضانها ليتخلص من مخاوفه، فاذا بزجاجة الخمر تتناقص ولسانه ينطلق بالأحاديث الشيقة التي تجد لديها زفة إحتفالية .. لكل ما يصدر منه .. وعندما تمادت ، وجم، أخذت تشرح له الفرق بين الشرق والغرب، فى العلاقات العاطفية وبينت

له اهمية الوقت في الدول الصناعية الكبري ».هنا لن تجد من يكتب قصيده من ألف بيت ليتمنى رؤية حبيبته »

«هنا لن تجد من يشعر باللوعة من أجل نظره، لعدة أعوام دون ان يحصل عليها ». هنا من يريد أن يرى حبيبته يذهب ويراها ويحسم الأمر - لن يرسل الطير والشجر وأمواج البحر والليل ويبقى مكانه جامدا لا يتحرك .. هنا اذا ما رغبت أنا فى احتضانك .. سأحتضنك هكذا (طوقته وقبلته) وسأقبلك هكذا .. واخلع عنك ملابسك هكذا .. (واخذت تعاونه في التخفف من ملابسه) - هنا - واكتس صوتها بالعتاب - يكون الشخص جلفا وبدائيا اذا ما رفض دعوة أمرأه معجبة به .. (سكن عن المقاومه .. ورفض ان يكون ذلك الشخص المهذب وقد أمدته الخمر بالجراه .. وما فى ذهنه ينزلق الى لسانه .. جعلته - وهي تلتصق به يتخلص من كل القيود التي كبل نفسه بها .. كانت مأساته عميقة الجذور .. وأرضه عطشى جافه مشققة بالأخاديد .. دأب علي أن يحتمي بالاخلاق .. لتبرير هذا الجفاف .. لكن الماء الرقراق كان يتدفق في أخاديده العطشى .. ولم يجد رغبة في أن يغلق المصدر الذى يمده بتلك اللذة التي طالما هفا إليها .. إن وقف هذا التدفق نوع من البله كان عليه أن يبحث عن زريعة لما فى داخله من مقاومة - وجد الزريعة في الخمر .. فاتخذها مشجبا .. يعلق عليه (شوقى القديم). حاول أن يتماسك حتي يفرغ من الوصول الي الهدف الذي جاء من أجله .. لكنها كانت تمد ساعديها تحت ابطيه .. وتجعله يقف على أرضها .. وحتى توقف إيقاظ عقله .. قالت له

- كن واقعيا يا شوقي .. ليس لديك مال كاف .. وانا لدي هذا المال .. وليس لديك اقامه هنا - وأنا لدي إمكان بقاؤك المدة التى ترغب فيها .. وليس لديك خبرة لتبحث عن - سعيد - وأنا سأكون دليلك .. هل تريد ان تعرف المقابل يا شوقي؟

المقابل .. يتمناه أى رجل .. ولكني اخترتك أنت بالذات .. منذ اللحظة التي وقعت عيناى فيها عليك .. هى ساعة حظى التي لم تكن فى الحسبان .. أنت الذي اتيت من آخر الدنيا - دعك من الأسباب لقد طرقت بابى الموصد .. أنت الرجل الذى انتظرته طويلا .. لن تصدق .. إذ قلت لك .. أنت قرينى .. عشت معك في دنيا غير هذه الدينا .. والآن التقى بك .. »

قال شوقى وهو يغالب رغبته فيها .. كآخر رعشه مقاومه عقلية ..

- أتيت لابحث عن ابني .. أعود متزوجا ..؟

وضعت يدها علي فمه وقالت

- نح موضوع الزواج جانباً .. دعنا نتعرف أولا .. هنا لا يشترون سمكا في بحره، لابد من صيده أولا .. هل تستطيع إثبات أن اسماكك جيده وطعمها لذيذ دون أن تمسك بها ..؟

إنهارت آخر الحصون .. وأستبيحت مدينته لقواتها الغازية..

صحبته إلى حجره داخليه .. أدخلته ليواجه فراشاً وثيرا .. توقف عن خلع ملابسه فى الضوء الباهر الذى يأتى مباشرا وغير

مباشر .. وعندما استدار ليبحث عن مفاتيحه وجدها تنضو ملابسها .. وتستقبله عارية .. لم يتمالك إلا أن أخذ يردد .. (سبحان الله ..)

أمام أنثى فى قمة النضج .. تخلصت من كافة الدبابيس فأنسدل شعرها الليلى .. يحتوى وجهها القمرى وعنقها العاجي .. وتحركت نحو المرآه .. راحت تنثر رزاز عطر مسكر فى سماء الحجرة السابحة فى الأضواء .. تضاعف احساسه بالخدر وتصور للحظات أنه يمر بحلم .. كان يود أن يطفئ الاضواء .. أو يخفف منها قليلا .. عندما شعر بالعرق يتفصد من مسامه .. ولكنها أوقفته .. تعلقت برقبته .. همست فى أذنه .. هنا كل شيء يكون واضحا - حتى لا يطوف بخيالك أخرى غيرى .. وحتى أراك انت وحدك !!- (لكن النور ياچينا .. لم أعتد ..)

- أنا لا أحب الظلام .. لا تكن خفاشا .. أريدك كما انت وخلصته من باقى ملابسه، تحتضنه تاره من الخلف وتاره من الآمام .. تسقط به على طرف الفراش ثم تفلت من تحته لتصعد على صدره .. والأخاديد ترتوي.. والماء يسري في الشقوق الجافة.. يشعر بالنشوة ويصعد إلى قمة الشبق .. فتفلت وتتكفئ على وجهها .. فى تلك المطاردات التي تبعثرت على أرض الغرفة وعلى السرير الدائري نوما وجلوسا ووقوفا .. و .. خطر له « إنها بنت من بنات الحور تمنحه قمة المتعه عندما تندمج الروح مع الجسد .»

« .. بينما اثنان من المصورين المحترفين خلف الجدران الزجاجية التي تبدو من الداخل كالمرايا .. كانا يقومان بتصوير

الفيلم مستخدمان آلتى تصوير حديثتين من زاويتين مختلفتين .. وجينا التى تقوم بعملها تتقن هذا الفن .. وتتحكم فى اخراج المشاهد والزوايا الفاضحة .. لتكون صورته شديدة الوضوح . شديدة التعبير عن مشاعره فى هذه اللحظات الشيقية .. تم تصويره على كافة الأوضاع حتى وهو يلوط بها .. قبل أن تسمح له بالصعود على صدرها .. ليهدأ ... »

(١٩)

.. في تجهيز الفيلم وعمل المونتاج والصور الفوتوغرافية الفاضحة لأدق المشاهد وضوحا قد يتم لقاء بين من يسمى - رحيم الطرابلسى وضباط الموساد فى المانيا .. ليواصلوا فحص هذه الحالة الجديدة .. ويوصى أحد الضباط بضرورة توريطه فى الديون - وان يوقع علي شيكات وايصالات قد تتسبب في حبسه بسجون المانيا لمدد طويلة .. وذلك قبل مفا تحته بما هو مطلوب منه .. وقد يتعرضوا لدوره الذي يتلخص فى مراقبة (ميناء الاسكندرية) .. وينسق بينه وبين أحد العملاء فى الاسماعيلية لمواصلة .. مراقبة بناء حائط الصواريخ .. وتحديد ما هو وهمى وحقيقى من هذا الحائط الدفاعي .. وقد يذكر أثناء الحوار بينهم . الحاجة الماسه لتجنيد أكبر عدد ممكن من المصريين . بعد اختراق المخابرات المصرية لعملائهم القدامى وخشية - اعدادهم للعمل المزدوج .. وقد يوصى أحدهم بان يكون العطاء لهذا الرجل محدوداً .. وضرورة البحث عن ابنه سعيد .. ليكون رهينة في يدنا .. نضغط

به عليه، حتى نضمن عدم تفكيره في الاحتماء بالمخابرات المصرية .. وأن تبدو (چينا) انها وقعت فى غرامة وانها ضحية .. تريد منه أن يلعب دور البطولة فى انقاذها ......»

كانت (چينا) تقود سيارتها وتصحبه معها الي المدن البعيدة .. تنزل به في الفنادق الفخمة - وتقضي يومها معه في التردد على المكاتب والشركات والفنادق .. بحثا عن (سعيد) .. وكان شعوره نحوها بالامتنان عظيما ومؤثرا .. ولكنه كان يوقع على الأوراق ومطالبات الفنادق - بتحريض منها،علي أنها ستتكفل بدفع هذه النفقات - وتدعوه أن يتعاقد مع مخبر خاص، باجر باهظ - واذا ما تردد - همست له .. ان ثروتها طوع بنانه .. وانها علي الطريقة الشرقية يجب أن تقدم رجلها عنها .. فيشعر بأن الدنيا لا زالت بخير، بل أنه اذا ما خلى بنفسه .. قد يشكر (تغيب) سعيد - الذي اتاح له رؤية دنيا جديده كان غافلا عنها .. وأمسى همه انَ يرى (سعيد)، ثم يتفرغ لغرامة العارم ... ويلحق بأيامه التى كادت أن تنصرم دون متعة »

«طبقا للخطط الموسادية المحكمة .. تمت المواجهه .. إجتاحوه في وقت قصير باسلوب المفاجأه تلو المفاجأة .. شل تفكيره .. وانهارت قدراته الدفاعية عندما أطلعوه على الفيلم والصور .. ومطالبات الفنادق .. وعقد المخبر الخاص الذى يتضمن الأجر الباهظ .. ثم حدثوه عن تفاصيل القوانين الألمانية تجاه المحتالين والموقعين علي تعهدات لا يقدرون على الوفاء بها .. بالاضافة إلي .. أثر الفضحية التى يمكن ان يسببها الفيلم ..

كل شئ تم تفسيره له بلغة عربية واضحة، حتى يمكن الإلمام بحجم الكارثة.. التي ستحيق به إذا ما رفض التعاون معهم .. لم يكن أمامه إلا أن ينطق بالكلمة التي يريدون سماعها ..

- ماذا تريدون منى بالضبط؟

- أن تعمل معنا من أجل الحفاظ على السلام !

- وما العمل الذي يمكن ان أقدمه .. وماذا ستقدمون لى في المقابل

- ستواصل البحث عن سعيد حتي نعثر عليه .. بل أننا على وشك العثور عليه - وعليك أن تفكر، قبل ان تغدر بنا، أنه سيكون تحت يدنا .. أما الديون والشيكات ودعوي المخبر ضدك عندما تثبت لنا اخلاصك .. سنقوم عنك بالسداد، بل سنزودك بالمال الذي تريده، حتي يمكن أن تعيش مع چينا .. في مستوى مناسب بالاسكندرية ..

- چينا ..

- نعم چينا التى اوقعتها فى غرامك يا شقى .. ماذا فعلت بها .. حتي أنها تفضل السفر معك ولا تستطيع الابتعاد عنك..؟

- اسألوها ماذا فعلت هى بي؟

قد يأكدون له، انها لم تكن تدري شيئا عن تصوير الفيلم .. بل أن هذا الفيلم، اداة ضغط عليها .. أيضا، قبل ان يكون أداة

ضغط عليه .. وأنها إذا لم تحفظ سرهم سترسل .. نسخ منه الي اهلهافى المغرب ..»

حجزوه خلف هذه العوائق .. كان من الطبيعى ان يقول :

- دعونى افكر ..!

بمعني أنى قبلت العمل معكم مبدئيا .. ثم يفكر بعض الوقت وامام منطق (چينا) - بأنها ترغب فى الخلاص منهم بالسفر إلى مصر معه .. يوافق على السير فى الطريق الذى رسموه له .. وفى ظنه .. أنه إذا ما غادر ألمانيا .. أمكنه أن يفلت من قبضتهم ..! »

قلت لشوقي الجاسوس.

- ألم تفكر - إذا ما عدت إلى بلدك - أن تشرك المسئولين .. لمعاونتك فى الخروج من هذا المأزق ؟

- چينا كانت معى .. كما أن الوقت كان قصيرا .. ما كدنا ننتهي من تأثيث شقتنا الجديدة بالقرب من الميناء الغربي .. حتى أرسلوا لى صورة لابنى سعيد مع زوجته الألمانية وطلبوا منى .. إرسال ما توصلنا اليه عن طريق - خطابات بالحبر السرى .. كما أنه كان لچينا .. ذلك الميزان الصغير الذى تزن عليه بدنها فى الحمام .. وكان يمكن تحويله إلي جهاز ارسال بتعديلات يسيره .. ولدينا الراديو .. الذى نستقبل عليه رسائلهم بشفرة تعتمد علي .. رواية (لاحسان عبد القدوس ..)

أقمنا بضع حفلات لجيراننا واصدقائنا .. ومددت حبال الصداقة مع بعض الموظفين بالميناء وبعض العاملين والضباط بالأسطول البحري .. كانت چينا - نجمة هذه الحفلات .. وكانوا يتحدثون بتلقائية عن الاستعدادات للحرب .. هو الموضوع الوحيد الذى كان يشغل الجميع .. ماعلي چينا إلا أن تسجل وتبث .. لكن (صدقنى) كنت أتحين الفرصة .. للذهاب إلي مديرية الأمن .. وفي نفس الوقت كان (سعيد) يقف عقبه في طريقي .. كنت أريد أن أبلغ المخابرات المصرية وكلما عزمت على التوجه إلي المسئولين .. ظهرت عوائق جديدة ..

- عوائق ..؟

- كان لهم (طبيب) يفتتح عيادة خاصة بالاسماعيلية .. وكان من المفترض أننا سنعمل معا، بعد وصولي .. اطلق على نفسه الرصاص .. وابلغوني أنهم صفوه جسديا لأنه فكر فى خيانتهم .. بينما قرأت فى الصحف أنه انتحر عندما كشفته المخابرات المصرية .. كنت أريد فرصة تغفل فيها چينا ..!

* لم أقل له (أم انك استمرأت الحياة الجديدة .. !!؟)

- وانتهزت الفرصة التى سنحت لى - عندما اصيبت بآلام فى الكلى ذهبت بها الي مستتشفي خاص .. أرسلني الطبيب لابحث عن حقن معينة .. ارسلت الحقن .. وتوجهت إلي مديرية الأمن .. صحبني أحد الضباط إلي فيلا في (كفر عبده) التقيت هناك برجل في ملابس مدنية . كتب أمامه صفحة كاملة بها كل

التفاصيل ووقعت عليها . وبينت لة الرهينة التي تحت أيديهم .. فطمأني .. بأنة سيتحقق من هذة االمعلومات . وانة سيعمل علي سحب هذة الرهينة من تحت أيديهم .. وأنهم سيكونون بجانبي .. شعرت اني تحت المراقبة .. وبعدها ظهر ضابط بحري شاب في حفلاتي ..اعتقدت انة من قبل المخابرات . اذداد مرض چينا فطلبت السفر للعلاج في فرنسا والعودة.. بمجرد سفرها واختفاء هذا الضابط الشاب ..توقفت تماما عن العمل .. وانتظرت ان يلتقي بي ضابط المخابرات كما وعد .. لكن ...

-آة من لكن هذه ياعم شوقي!

هي التي البستك البدلة الحمراء . »وكان على لسانى .. كثير من الأسئلة التي لا أجد لها اجابات منطقية فى حديثه .. حتى إذا ما صدقت أنه تم اتصالا بالمخابرات .. كيف يتركون چينا تفلت ..؟!

(٢٥)

فى ذلك الليل الأمشيري الذي يجعل للريح اصواتا وقرقعات تتخلل شوارع الاسكندرية التى يغسلها المطر في رخات متعاقبة .. تناهت للخواجة كرياكوس أصوات دقت علي الباب ..

عندما رفع الغطاء عن وجهه بادر باضاءة مصباح الأباچورة والنظر في الساعة .. كان عقربى الساعة يتصلان بالرقمين الثانى والعاشر؛ تيقن أنها ليست العاشرة وعشر دقائق .. لأنه نام في الحادية عشر والنصف، لماذا هذه الدقات الملحة فى هذا الوقت .؟

من يأتي إليَّ في هذا الموعد .. ؟

لكنه كان يعمل مع عدد من العملاء الذين لا يسيرون فى الطرق المطروقة .. توقع أحدهم .. لكن طريقة الدق علي الباب كانت مزعجة .. أنزل قدميه من فوق السرير وأمال جزعه الطويل على درج (الكومودينو) تناول مسدسا صغيرا اختفى فى قبضته .. حطه بجانب المصباح، وأرتدى الروب وعاد وتناول المسدس ودسه فى جيب الروب .. شخللت مجموعة المفاتيح في جيبه .. كان مضطربا وضائقا بهذه الزيارة فى هذا الوقت .. وهو يتجه لفتح الباب ..

. . .   . . .

(شارلى ..) كان قد وضع خطته باحكام .. هو الذي داس الشقة وجلس مع الخواجة كرياكوس علي الترابيزة في الصاله .. مرة، واستقبله في الصالون مرتين .. ويعلم ان كرياكوس وحده في هذه الليلة بعد أن سافرت زوجته إلي الخارج منذ اسبوعين والخادمة لا تبيت فى الشقة معه في هذا المساء الأمشيري، وكان جالسا أمام عجلة القيادة فى السيارة البوكس فورد الزرقاء أمام باب العمارة. لكنه فى ثياب جاويش سائق .. وقد بدل ملامحه بإضافة شارب كثوحاجبين ثقيلين ودهن وجهه باللون الأسمر وصنع تحت السترة الأميرية بطنا اضافيه من حشية قطنيه أدار عليها الحزام الجلد البوليسي، في منتصفه المربع النحاسي الاصفر لامعا .. كما أن جماعته التي تقوم بدور رجال الشرطة تتألف من ضابط (يوزباش) قام به باتقان المصور الفنان (كمال) .. وكونستابل يقوم بدورة (صلاح). ومخبر في ملابس بلدية (صادق) وعسكري

متنكر (اسماعيل) الذي خبر الشقة بدوره .. ولحاجة شارلى له .. غير شكله وحذره من وقوع عين كرياكوس عليه .. كانوا جميعا قد تدربوا على المهام التي سيقومون بها على وجه السرعه .. واستوعبوا التفاصيل وأعيدت على مسامعهم البدائل والاحتمالات .. كانت الخطة تعتمد على أثر المفاجأة - وما تحدثه - قبل أن يفيق كرياكوس، اذن النيابة سيخرجه الضابط ويضعه امام عينيه لثوان ثم يطويه ويبدأ في اصدار اوامره للآخرين بالتفتيش - وعليه أن يبقيه لديه في محاولة طويله نسبيا لتوضيح الأسباب - ثم يصحبونه مع المضبوطات إلي السيارة للذهاب به إلي قسم العطارين .. وأمام باب القسم . سوف ينزلونه مع (صادق) المخبر ليدخل به باب القسم الخارجي ويعبر به المسافه من الباب الخارجي حتي باب المبني الداخلى .. ويأمره بالوقوف فى احدي الطرقات لاحضار المضبوطات من السياره - عند عودة صادق الى السياره يقفز في الصندق وتنطلق مبتعدة .. الى حيث ·النعيم والغنيمة ..

والبدائل - متعددة -لايتم اللجوء إليها إلا عند الضرورة القصوى .. منها - كسر باب لشقة إذا لم يبادر ويفتح من الداخل - وضرب كرياكوس خلف الرأس بيد المسدس الفشنك اذا أبدى مقاومة للقوة .. وتوثيقة في أحد المقاعد اذا لم يدل القوة على مفاتيح الخزينة أو إذا وقف في وجه تفتيش الشقة - وأن يتم التفتيش عن المفاتيح أولا .. في ملابسة بداخل دولاب حجرة النوم أو فى الكومودينو بجانب السرير .. وفي كل الاحوال .. بما ان المفاتيح بها مفتاح الشقة فستكون في مكان ظاهر ..»

تعثر الخواجة كرياكوس حتي وصل خلف الباب .. الدق الشديد لا يتيح له فرصة للتفكير .. واسمه يتردد بقوة .. «استافرو كرياكوس .. افتح الباب »

اخفى كرياكوس المسدس فى جيب الروب وعالج الترابيس .. انفتح الباب .. ملأت نجوم الضابط عينيه وحل مكانها ورقة في حجم الكف عليها أختام وبها أسمه.. للحظات وضعت بالقرب من عينيه .. ثم انسحبت لتطوى وتوضع في جيب صدر الضابط .. فاذا بمسدس الضابط والذين يتحركون خلفه يثير فى رأسه كثير من الدهشة فلا يسمع شيئا مما يقوله الضابط .. أخذته المفاجأة، حجزه الضابط بصدره وضغط عليه ليتحرك إلي الداخل .. أفسح الباب لتدلف القوة بداخل الشقة .. الكونستابل والعسكرى والمخبر .. انفجرت المفاجأة بداخل كرياكوس فلم يعد قادرا علي المقاومة .. كان يريد أن يتابع الذين يتسربون داخل شقته - لكن الضابط كان قد دفعه في صدره .. وارسل يده بداخل جيب الروب القريب منه فإذا به يلتقط المسدس الصغير ولا تصتدم يده بالمفاتيح .. كان يريد العثور علي المفاتيح .. فإذا بالمسدس يخرج بيده .. سأله إن كان مرخصا .. وأين التصريح بحمل مسدس .. ثم وضعه فى جيبه .. وأشار إليه بماسورة مسدسه الفشنك أن يهدأ ويجلس .. فالأمر ليس خطيرا حتى الآن .. لكن إذا تم العثور على المسروقات موضوع البلاغ ضده، فسوف تنفتح امامه ابواب جهنم .. هدأ كرياكوس قليلا، تمالك نفسه ليسأل الضابط .. عن سبب التفتيش .. قال الضابط .. هل كل ما لديك هنا من آثار مشروعة أم مسروقة؟ .. أكد كرياكوس بأن ليس لديه فى الشقة أى آثار

من أصله .. وأن ما يوجد بالمحل هى آثار مقلدة .. لكن الضابط لم يترك له فرصة .. قال : ألا تدرى يا خواجة أن رائحتك فاحت .. أين المفاتيح؟

كان الكونستبل قد ظهر وعلى وجه علامات الاستفسار .. يريد ان يبلغ الضابط بانهم لم يعثروا على مفاتيح الخزينة - أخذ يشير بيده .. ولكن الضابط ابتسم في وجهه بهدوء .. وعاد ينظر في عين الخواجة كرياكوس الذى كان متحيرا .. أيجيب علي اتهام الضابط له بأن رائحته فاحت .. ليسأل عن مضمون الاتهام .. أم يرفض أن يدله على المفاتيح، حتي يحضر محاميه .. قال الضابط وهو يغالى في ضبط مخارج ألفاظه (خشية ان يعيد المشهد ..) : الشرطة عيونها مفتوحة وهي لا تأكل (تاتورة) .. إننا نتابع اعمالك بكل عناية . عاد الكونستابل يرسل اشارات متلهفه ويفتح الفراغ بيده .. كان الضابط قد ضغط على الخواجة حتى الصقة بحافة ترابيزة السفرة .. دفعة فى صدره بيده فإذا به يجلس على المقعد الذى تحته .. مال عليه حتى كاد وجهة يلامس انفه وشخط فيه ..

- هل تحفظ المسروقات داخل الخزينة ياكرياكوس ؟

أنكر الخواجة هذا بيديه ورأسه وحاول أن يقوم .. فأجلسه الضابط بطرف مسدسه وصرخ فى وجهة ثم هبط بصوته إلي الفحيح (اذا كنت تقول الصدق دعنا نري بأعيننا .. رأيت اذن النيابة بالتفتيش .. أين المفاتيح ..؟

تلقائيا كانت يد الخواجة تتحسس جيبه التي استقرت به المفاتيح .. وكان الضابط قد خمن أنها في جيبه ولكنه لا يريد للدور أن يكون قصيرا .. انتظر حتي رأى التعبيرات التي افترشت وجه الخواجة .. ثم أوقفه بيده ممسكا بياقة الروب . وبينما ينظر في عينيه - كانت يد الضابط تتسلل إلى جيب الروب وتلتقط المفاتيح، يهزها أمام نظر الخواجة ويؤبؤ عينيه تتابع حركتها .. تضايق الكونستابل لحركات الضابط البطيئة .. فتقدم لأخذ المفاتيح كان يريد نزعها من يده .. لكن الضابط أمره في حزم أن يتوقف .. ثم اخذ يسأل الخواجة كرياكوس عن مفتاح الخزينه وهو يفرز المفاتيح الكبيرة .. هل هذا .. أم هذا ؟ وكأن الخواجة ادرك أنه يستطيع أن يضللهم لفترة، وعينه تذهب إلى التليفون - وكلما أمسك الضابط بأحد المفاتيح وأبرزه من ثلة المفاتيح هز كرياكوس رأسه نفيا .. كاد الكونستابل أن يتهور ويضربه .. لكن الضابط استدار ووقف في طريقه .. كان كرياكوس يحاول أن يتذكر اسماء بعض الشخصيات المعروفه بالمدينة ويذكر أسماء بعضهم ويلح في استحضار محاميه .. قال له الضابط مبتسما (ربما لا نجد لديك ما حضرنا من أجله، فلماذا الشوشره على نفسك، وأنت على ما يبدو رجل طيب، ربما كانت الشكوى كيديه .. نري وينتهى الأمر ..)

ارتاح الخواجة لكلمات الضابط .. تنفس بعمق وأشار له على أحد المفاتيح .. أمسك به الضابط مسقطا كافة المفاتيح من حوله .. وسلمه للكونستابل .. قبض الكونستابل على المفتاح المعين وباقى المفاتيح تصطك بمعصمه .. سريعا ما كان المفتاح يستقر فى ثقب لخزينه الحديد الثقيلة وينفتح الباب: نزع المخبر

غطاء مخدة طويلة وربطها من ناحية وفتح فوهتها من الناحية الأخرى، هالهم أن الخزينه مكدسة بالاموال والتحف الذهبية والقلائد والجنيهات الذهبية كما أن بداخلها علبة المجوهرات الخاصة بزوجتة .. أفرغوا محتوياتها بداخل كيس المخدة وأضافوا ما يرونه تحفا ذات قيمة وحمل العسكرى اسماعيل الحمولة على كتفه الذى يواجه الضابط والخواجة .. بينما الكونستابل يقوم بتفتيش الدولاب حصل على حافظة نقود الخواجة وعدد من الساعات والنظارات والاقلام .. وتبع العسكرى المخبر ثم جاء الكونستابل .. ليحيّ الضابط .. (تمام يا أفندم) وصنعا سويا ستارة أمام الخواجة،الذي كان لا يزل يعاني حالة الذهول،كما كان يحاول إثبات أنه، (لا يمكن ان يفعل شئ ضد القانون) طلب منه الضابط أن يغلق الشقة ويصحبهما .. ولم يسمح له إلا بارتداء بالطو ووضع كوفية حول اذنيه،في محاولة لطمأنته أن الشكوى إذا ما كانت كيدية فسوف يتم الانتقام من الذي أرسلها .. ويسأل الخواجة (هل لك اعداء ؟ هل تشك فى أحد من جيرانك ..؟)

وامام باب القسم توقفت السيارة .. وتلقى الضابط تحيه عسكرى الخدمة، ربما خطر للخواجة كرياكوس فى هذه لحالة التى تصير فيها (نفسه) أثمن من كل اموال الدنيا - لو أن الوضع انتهى بخسارة مادية متوقعة .. ولا يتم اتهامه بتهريب أموال اليهود واشيائهم فيحبس في سجون مصر إلى ما شاء الله، وربما كان (شارلي) يعلم ما لديه من أُموال - لليهود - والتي جهزها للتهريب فضرب ضربته في هذا الوقت بالذات .. ولما قفز المخبر - صادق - بداخل صندوق السيارة من الخلف .. انطلقت السيارة

مخلفة دخانا كثيفا احاط بعسكرى الخدمة .. الذى كان يحرك يده أمام أنفه طاردا هذا الدخان قبل ان يتسلل الى رئيته .. وهو في حالته المطمئنه، بجفونه المسدله إلى منتصف العينين يغالب النعاس فى الساعات الأولى من هذا الفجر البارد .. ويرسل البصر كليلا الى هذا (الخواجة) الذى أحضرته (القوة) وتركته فى حوش القسم .. يرتعد من البرد ..

(٢١)

.. كتب (الدكتور) .. مقالا .. وتمكن من تسريبه أثناء جلسة معارضة إستمرار الحبس ، نشر المقال في إحدى صحف بيروت،وعنه نوهت وكالات الأنباء العالمية عن حقيقة قضيتنا .. وانتظرنا رد الفعل ..

جاء رد الفعل في صورة حملة تفتيش دقيقة للزنازين التى نسكنها،فصودرت أمواس الحلاقة والمجلات والطاولة والدومنيو والراديو والأجندات وورق الدشت وورق علب السجائر - وخاصة الأجندة التى كانت من هدايا الضابط البدين، الذى عاونه الدكتور الجامعي في تحضير دبلوم في الاقتصاد أو بحث خاص بدراسته في كلية التجارة - وكافة الأقلام والطواطو وعدة الشاى .. كما تم الغاء المصابيح من داخل الزنازين والترابيزات والباطاطين الاضافية والملابس الزائدة .. والمخزون من البهارات والبصل والثوم والمخللات ..»

وعليـه فـقد تولت القيـادة الخـمـاسيـة تنظيم الرد علي هذه الهجمة (الشرسة) وبدأنا إضراب عن الطعام، وكان لابد من الإعلان عنه خارج جدران السجن ليأتي بأهدافه ..

كانت مصيبتى الكبرى، ضياع الأجندة - التى سودت فيها وملأت معظم صفحاتها - بخط منمنم - بعدد من القصص .. كتبتها في ساعات تجلى ، تنهمر فيها التفاصيل ويجري القلم على الورق في سباق مع تدفق العبارات - فى ولادة لها موعدها . لاتتأخر ولا تتقدم ولا تتكرر ..!

.. كيف يمكن تمثل ذلك مرة أخرى ، مهما كان التمثيل رائعا فهو لن يكون الواقع الفني بدفئة ورعونته .. اكتئبت إذ فقدت - المكافأه - التى كانت ستعوضني عن أيام السجن .. كنت أري انها مكافأه مجزية، كلما أنهيت فصلا او قصة أفرح بها وأزهو متخيلا ما سوف تحدثه (محتويات الأجندة) إذا ما اتيحت لى فرصة النشر.

حكم علي الأجندة - وأوراق الدشت - وعلب السجائر .. بالسجن المؤبد .. أو ربما الاعدام، لهف قلبى على ابداعاتي الساخنة .. وغرقت فى حالة حزن حقيقية منذ دخولى هذا المكان .. كان أحد (المراكز) يواسينى .. بما بعث فى صدرى بعض الأمل ..

«انهم يحتفظون بكل الأوراق التى يعثرون عليها .لعرضها على المسئولين .. ويمكن استرداد (مسوداتك) يوما ..»

لكن هيهات .. لقد تم الانتقام منى «شخصيا ..»

كنت قد كتبت وصفا تفصيليا - مع انهمار الذكريات والتداعيات - عن اليوم الذى أعدم فيه - شوقي القرداحي - رأيته من خلف النافذة التى تطل على حوش السجن .. بزاوية حادة .. وهو يخرج بين حرسه وخلفه موكب الاعدام،كان يؤكد لى في اليوم السابق، أن التماسه باعادة التحقيق قد قبل، او على وشك القبول .. وان ضابط المخابرات الذى قابله .. قبل مصرعه . وهم لا يعلنون عن وفاة هؤلاء الضباط - نظراً لأنهم ينتحلون أسماء شخصيات أخرى للتموية - كان قد ترك (الموضوع) لضابط آخر - وأن ذلك الآخر - كان قد احيط علما بالمقابلة وأنه دس في حفلاتنا .. الضابط البحري الشاب - وأنه بمجرد أن يُطلع السيد الرئيس على المذكرة المرفوعة .. سيأمر سيادته في الحال بإعادة التحقيق .. » كان شوقى القرداحي .. يتحدث بثقة .. وينقل كل كلمة أبلغه بها ولده (سعيد.). ورأيته وقتها يدخن بهدوء الواثق..»

وفى هذه الأجندة الغالية .. كتبت عن تفاصيل سرقة الخواجة كرياكوس، وكيف قام شارلى بإخراج المشاهد واستخدام فن التمثيل بلوازمة من مكياج وملابس وابداع ..وكيف انطلقت السيارة تحمل الرجال الخمسة بالغنيمة .. ثلاثة منهم في كابين القيادة - شارلى الذى يقود وبجانبة الكونستابل صلاح .. والضابط كمال وتحت اقدامهم يرقد كيس المخده المنتفخ بالآمال، وفي صندوق السيارة .. العسكرى اسماعيل والمخبر صادق .. والجميع يتلهفون علي اقتسام هذا الكنز في حالة من النشوة

(٢٢)

بينما السيارة قد انطلقت الى الملاحات الواقعة خلف المدينة باجوائها المستنقعية، بحيرات، ظلام، بوص وهيش وخلاء .. لم يكن الخواجة شارلي يتخبط في طريقة، بل كان ينطلق بأقصى سرعة قاصدا هدفا محددا ..

توجس (الكونستابل) بحكم عمله مع تجار المخدرات واحساسه المبكر بالخطر .. فزع وأمسك بيد شارلى يطلب منه التوقف .. خاصة وقد ابتعدوا بما فيه الكفاية، لكن شارلى كان يواصل زيادة سرعة السيارة وتفادى الانحناءات، صاح صلاح فى أذنه أن يتوقف .. فلم يرد عليه .. إذا بالخوف يهاجم صلاح عندما لم يعره التفاتا .. فمد ساقه وضغط على قدم شارلي فوق دواسة الفرامل .. اضطربت السيارة إذ تمت الفرملة بشكل فجائى وكادت تتعرض للانقلاب - دارت حول نفسها وتمكن شارلى من السيطرة عليها .. ولما لم يتوقف تماما .. أنقض صلاح علي رأس شارلى - فاذا بحد سكينه يحز في رقبة شارلى وقد أمسك باليد الاخرى بجبهته وامال رأسه على مسند المقعد، صارخا فيه، أن يتوقف، ظهر علي وجه شارلى الرعب - وابطأ من سير السيارة ..عاد صلاح يصرخ في وجهه

- قلت لك قف .. قف

هادن (شارلى) الذى انكمش وأرخى يديه عن عجلة القيادة .. وأوقف السيارة .. قائلا

- أنا وقفت خالص .. شيل السكين من فوق رقبتى

يا مجنون

لكن قدم صلاح كانت تضغط علي كيس المخدة المنتفخ .. بيده قام بتعبئتها ..

.. وكأنه يستمد منها شجاعة أو اغراءا .. ضغط بيده الآخرى على رأس شارلى كأنه يهيؤه للذبح.. فإذا بشارلي يسلم له تماما دون مقاومة.. ربما لو قاوم شارلي لوجد صلاح مبررا لذبحة فى هذه اللحظة الغاضبة .. كان لا يزال يسأله

- لماذا لم تتوقف ؟

أمسك كمال بذراعه يهدئ من روعه .. وعندما هم صلاح بالاسترخاء ورفع السكين مبتلعاً الغضب المفاجئ .. كانت يد شارلى تتسلل إلى جيبه ..انطلقت رصاصة مكتومة من جيب سترة شارلي، لتمزق صدر صلاح، وتستقر فى قلبه، دفعته الطلقة فى احضان الضابط كمال .. الذى تلقاه (يفرفط) ثم انكب منه برأسه بجانب عجلة القيادة والدم يسيل علي كيس المخدة .. ساختنا ألجمت المفاجأة كمال كما جعلت (الطلقة) اسماعيل وصادق يأتيا مسرعين، ثم اخذ شارلي يبرر ما حدث، دون أن يتخلى عن المسدس .. كان يريد أن يقنع (العسكري والمخبر) أمام الضابط

بأنه كان في حالة دفاع عن نفسه وشهد كمال بان سكين صلاح كانت على رقبة شارلى، وقال لهم شارلى محذراً.

- المسدس في يدي به طلقات تكفى ان اتخلص منكم جميعا وأحصل علي المال وحدي، لكني أرغمت علي الدفاع عن نفسي، صلاح مجنون أراد قتلى .. »

هز كمال رأسه موافقا على اقوال شارلى .. وان صلاح هو الذى بادر بالعدوان .. وعلى عجل تخلصوا من جثة الكونستابل في أحراش الملاحات وأزالو بقع الدم من السيارة وواصلوا السير .. عاد اسماعيل وصادق إلى داخل الصندوق ولكنها جلسا متلاصقين ينظر كل منهما في وجه الآخر .. وبقى كمال بجانب شارلي .. قال له كمال فى حذر:

- إلى اين ستأخذنا يا شلبي!

اجاب : سنذهب إلى (شاليه) في العامرية، لدي احد الأعراب، نسوي عنده أمورنا » قال كمال وهو يتوجس شراً . .

(ولكنك لم تحدثنا عن هذا الإعرابى من قبل . إنك لم تغفل أى تفصيلة من الخطة إلا وقلتها لنا عشرات المرات) تجاهل شارلى الرد عليه .. ولم يفارق المسدس يده، رغم أنه يقود السيارة بكلتا يدية،وكأن اسماعيل وصادق الرميحى قد جمعهما الخوف في جسد واحد، اعرب صادق عن مخاوفة، قال اسماعيل (لكنه يملك المسدس وكان يمكنه ان يقتلنا ولم يفعل) قال صادق : (إن قتل ثلاثة دفعه واحده بمسدس واحد أمر ليس سهلا.)

وعندما استمر اسماعيل لائذا بالصمت المتوتر .. قال صادق ليقنع نفسه أولا:

(لن نطلب القسمة العدل ..)

هزا اسماعيل رأسه متمنيا أن تفوت الليلة علي خير ..

توقفت السيارة أمام مزرعة تين، سورها الأمامي من الحجر الأبيض، واذا بالباب الخشبى يتحرك خلفه شبح لشخص يفتحه، عندما مالت مقدمة السيارة نحو الباب وسلطت أضواءها عليه .. رأوه ينفث دخان سيجارته وقد غطى رأسه (بالحرام) ولا يهتم بالنظر في وجوههم .. مضت السيارة في مدق داخل المزرعة .. إلى مسافة ثلاثمائة متر تقريبا .. ثم توقفت أمام بناية صغيرة من نفس الاحجار .. لها سقف من الخشب والعروق، فاذا بالبناء يضئ ... وقبل نزول شارلى من امام عجلة القيادة .. فتح باب (المبنى) وظهر على عتبة الباب آحد الأعراب، متقلدا بندقيته تحت حزامه الفضى . كانت ملابسه البدوية كاملة وليست ملابس للنوم . « هل كان ينتظرهم؟ »

اقترب منه شارلى وصار يتكلمان .. فاذا بالبدوي يتراجع به إلى مدخل البناء

.. كيس المخدة تحت اقدام كمال .. يضغط عليه بحذائه الأسود اللامع، بينما اسماعيل وصادق في حالة انعدام تفكير، ليس في رأسيهما سوى الصفير، وأمنيات غامضة تسبح في احساس مترقب للخطر .. خاصة وانهما يريان شبح الاعرابى عند الباب

العمومي وقد أغلق الباب،ولا يزال واقفاً هناك أو يتحرك ببطء.

كـان النهـار يحاول إزالة سـواد الليـل من صـفحـة السـمـاء .. بينمـا الضبـاب يرتفع إلى مسـتوى شجـر التين فلا يظهـر منه سوى زؤاباته المتناثرة علي مسـاحة كبيرة من الرمال .. ما الذى يدور في ذهن كمـال المصـور الفنان - الذي لعب دور البطولة في هذا المسـاء باتقـان، وهو ببـدلة الضـابط والدبابيـر على كـتـفـه .. ولماذا جلس هادئا .. يرقب مـدخل باب المبنى من تحت شـفـة الكاب .. لا أحد يدرى مـا حدث بـالتحـديد .. ولا صـادق الرمـيحى نفسـه .. فـيمـا أعقب هذه اللحظات ..

قيل، ربما تبين لكمـال أن السيارة لا زالت دائرة، وهو احتمـال ضـعـيـف لا يفـوت علي ذكـاء شـارلى، أو ان المفـاتيح كـانت فى (التابلوه) وهو أمر أيضـا لا يمكن حدوثه من (المخطط) الـذكى، وخاصة وأن شارلى قد قتل صلاح بعد ان بدأ يهدأ .. !

الذي يرجـحـة - عم صـادق - أن المسـدس الذى اسـتـولى عليـه(كـمـال)من جيب الخـواجة كـرياكوس،كـان مبـعث إطمـئنانه .. فـالقوة بينه وبين شـارلي متكافـئة .. لذلك فقد حاوره دون خوف .. وأن كـمـال انـتـظر حتى عـاد شـارلى - وكـان يريد أن يسـتـدل علي نواياه .. وعندما طلب شارلى منه الخروج من السيـارة حتى يضعها - أو يخفيها،في السقيفة القريبة، لم يقل له خذ معك كيس المخدة - توجس، كـان كـيس المخدة بما يحتـويه تحت أقـدام كـمـال .. فـلم يبـادر بالنزول .. كان شـارلى يتصرف طبيعيا .. فـتح البـاب وركب أمام عـجلة القيـادة، وربما أدار السيـارة وانتـظر نزوله .. وأن يجعل

اسماعيل وصادق ينزلا .. كمال الذي سيطلب منهما النزول وسيبقي - شارلي بداخل السيارة مع الكيس .. وضع المفتاح في الكونتاك وما كاد يدير السيارة وينتظر .. حتى اكتملت الفكرة في رأس (الفنان) .. انه لن يسمح لشارلي ان يفر بالغنيمة ويتركهم في يد الأعراب يجهزون عليهم .. هل كان شارلي قد اتفق على التخلص منهم ..؟ .. كما أنه خشى اذا تباطأ، يطلق شارلي عليه الرصاص، لذلك فقد دس يده في جيبه وأخرج المسدس الصغير وعاجل شارلي بطلقة في رأسه .. ثم دفعه بقدمه خارج السيارة من الباب الذي لم يكن قد اغلق بعد، ثم احتل مكانه امام عجلة القيادة، واندفع بالسيارة إلى خارج المزرعة .. وقد يكون - تباطؤ تدخل الاعرابي ببندقيته، في حينه، أنه اعتقد أن شارلي هو الذي اطلق الرصاص .. وعندما تبين أن الملقى خارج السيارة، هو شارلي، كانت السيارة تعود إلى الخلف وتستدير وتنطلق .. وكان كمال قد أرسل اليه بطلقة أصابته اصابة موثرة .. قبل أن يستعد ببندقيته لتعطيله ..

«إندفع كمال بأقصى سرعة ينهب المدق .. ثم اطاح بالباب الخشبي، وصعد المطلع الترابي المفاجئ .. وأدار السيارة يمينا ويسارا عدة دورات حتى اعتدل وتمكن من التحكم فيها .. يخبط في المرتفعات والمنخفضات والحجارة الرملية .. كان همه أن يبتعد باقصى سرعة، بينما اسماعيل وصادق يسقطان ويتماسكان ثم يسقطان بداخل الصندوق .. استمر كمال يندفع ويندفع ويحاول أن يصل الي الطريق الرئيسي .. فوجئ بأنه يندفع الى مستنقع مغطى باحراش من الحشائش إلى المستنقع الطيني المواجه .. ثم صادفته كومة عالية على حافة المستنقع ارتفعت السيارة وهبطت

بمقدمتها بداخل أكوام البوص وكانها تسقط من مرتفع إذأن المقدمة غاصت في الماء الطينى . والصندوق كان يهبط ببطء في الماء

تمكن اسماعيل وصادق من الخروج .. القوا بانفسهم في الماء .. وتعلقا بجذور الأعشاب والبوص .. يلتقطان الأنفاس المبهورة ولا يصدقان نجاتهما .. لكن السيارة كانت تواصل الغوص منزلقة فى البحيرة .. حتى اختفت بكاملها .. تعلوها تلك الفقاعات والدوائر بينما اسماعيل وصادق قد أدركا فى نفس اللحظة أن (المال) بداخل السيارة وأيضا كمال .. ولكنهما كانا في حالة عجز عن الإتيان بأي فعل أخذا يحاولان الخروج من المستنقع، واذا بهما يسمعان من يضرب الماء عن قرب . ويحاول سحب كيس المخدة معه والخروج به من الناحية الاخرى، كان ضوء النهار الرصاصى قد مكنهما من رؤيته .. اخذا ينادیان علیه .. لكن كمال .. كان يبتعد بسرعة يبغي الهرب وحده، .. لحق به اسماعيل وهو يواصل النداء عليه .. بأن يتوقف أو يتمهل ليعاونه - توقف كمال عن محاولة الهروب .. إستدار، وشهر مسدسه نحو اسماعيل، شلت المفاجأة اسماعيل، توقف، بل تجمد مكانه، يرمق فوهة المسدس .. كان يري الغدر فى عين كمال،توقع فى اللحظة التالية، خروج الرصاصة نحوه .. كانت المسافة تقل عن أربعة أمتار كل ما قاله (أنا اسماعيل يا كمال .. أنا اسماعيل يا كمال .. أنا وصادق لا نريد شئ من المال .. اتفقنا أن نرضى بأى شئ - كمال .. كمال .. »

تك .. تك .. تك كان المسدس خاليا من الطلقات .. فقذفه به .. واذا باسماعيل يندفع نحوه في جنون .. صارخا صرخات

هستيرية .. كمال حاول الإفلات بالغنيمة .. ولكن اسماعيل لحق به وانقض عليه من الخلف وبقي جاثما فوقة وهو تحت اقدامه في الطين (يتفلفص) .. ضاغطا عليه، لا زال. يصيح (انا اسماعيل يا كمال .. يانذل - يا ..) حتي سكن كمال تماما .. مختنقاً .. تم ذلك أمام صادق .. الذي توقف عن الحركة بالقرب من المشهد - كان الخوف يعصف به من أن يستدير نحوه اسماعيل (القوي) ويقتل هذا المشهد معه.. لكن اسماعيل طلب منه المعاونة .. فتقدم و أخذيعاونه فى إخراج الكيس ..

قال اسماعيل لصادق وهو لا يزال يلتقط انفاسه مبتلا وملطخا بالطين والحشائش

- اسمع يا صادق .. أنا وريث الخونه .. ما رأيك ؟

- رأيى رأيك يا اسماعيل !

- وانت لك نصيبك فقط .. الخمس .. سامع!

- سامع يا اسماعيل!

- قل موافق يا اسماعيل

ومد يده لاعتماد الاتفاق .(ومن أجل (الزعامة) التي لم تستمر يومان .. دفع حياته ثمنا،إذ أن عشماوى استقبله ذات صباح .. بينما صادق الرميحى .. ذهب الى ليمان طره]

يومان و(الكنز)معهما .. هل اخفاه (صادق) في مكان

أمين لحين خروجه .. أنه لم يتطرق الي هذا الموضوع ..!

(٢٣)

في الفجر الذي انهار من التعب متكوما أمام باب العنبر الحديد الموصد، شق موكب حفلة الاعدام الطريق، قادما من تحت القبو الطويل، الذي ينتهى بالباب الغليظ القادم من العصور الوسطي .. ذلك الباب الذي يطل وجهه الازرق علي الدنيا وظهره الاصفر على الآخرة ..!

قرقع الباب، باصطكاك المفاتيح، وسحب الترابيس، واصدار الأنين الموجع، وهم يفتحونه علي مصراعيه .. ليمضي الموكب الجنائزى ،فى خطوات رتيبة ،لها وقع الدقات العفيه المتوعدة..!

ضوء الفجر .. ونور المصابيح الشاحبة،أظهرا،جمود وجوههم التى نحتت من حجارة قديمة، مليئة بالثقوب والخربشات .. بينما خطوات أقدامهم، تدق على بلاط العنبر المتلفع بالسكون، في نهاية ليل مرهق .. برغم الكحكحات والتنمخيطات التي تكتمها البطاطين المتهرئة ..!

إستدار الموكب فجأة أمام زنزانتي .. توقف الضابط الكبير ذى الوجه الطينى، المدهون بالزيت، ولا زالت على عينيه نظارته الزرقاء، ينعكس على سطحها صورة باب زنزانتى منبعجا، رأسه صغيرة وبطنه .. بطن إقطاعى ،لا يتقن من اللذات إلا أكل الزفر!

وقف على يمين الضـــابط - مندوب الديوان وعلي يســـاره الشيخ ريحان، تتطابق ملامحه مع ملامح شيخ السجن وواعظه .. يحتضن دفتره الغليظ، الذى يسجل فيه عقود الزواج والطلاق .!

يتقدم الموكب من الأمام اثنين من السجانين .. أعرفهما .. وخلفهـا اثنين من المسـاعدين،على رأسيـهـا الكابات، يتقدمـهـا الصـقـر النحاسى .. وديعـا كـحمامـة .. بالمقارنة بالصـقر الذهبى الذى يتـوسط مقدمة كـاب الضابط الكبير، الذي كان جارحا ،لا زال يوحي بالانقضاض المفاجئ !

حاول السـجانين فـتح باب زنزانتى بالمفتـاح الكبيـر .. كان كـمفاتيح - فتح المدن التي تهدى للزوار الأجانب - قلم يفلحا .. إخـتلج الوجـه الطيني الأزرق في تقلصـات غـاضـبـة .. فـتـقـدم المساعدان .. نحيـا السـجانين وأخذا يعـالجا فتح البـاب .. رغم تبـادلهـما الضـغط والتـفل على رأس المفتـاح .. لكنهـما لم يفلحا أيضا .. قال الضابط الكبير فى صوت نسائى ناغج ..!

« يا بهائم .. غيروا المفتاح .. »

وعندما تغير المفتاح .. انفتح الباب ..

كنت قـد اسـتـيـقظت على الجلبـة، رفـعت غطاء (المراية) ولصقت عيني اليمنى علي الثقب المستدير .. فلم ارى سوي اشباح .. تذكرت أن عيني اليمني ضعيفة النظر .. حركت وجهي ولصقت العين اليسري .. رأيت المشهد واضحا .. وأيقنت أنه يوم اعدامي

.. فنزعت الملابس المدنيــة عن جــســمى .. وارتديت بدلة الاعـدام الحمراء في عجالة من يريد أن لا يفوته موعد بدء الاحتفال .. لا .. لم تكن البدلة حمراء تماما .. كانت فى لون الشربات المغشوش .. التفته، التي كان الباعة الجائلين يزوقون بها صواني المهلبية .. في طفولتي البعيده ....كم عدد من لبسوكى قبلي وماتوا ايتها البدله الشربات ..!!»

حـذرني البنطلون بأن لاوقت لإدارة المناقـشـات .. خـاصـة وموكب الاعدام يقف بالباب .. واشاحت أكمام القميص متعجلة لاستكمال القيافة ..

ولما كنت أدخل رأسي فى القـمـيص همس فى اذني : مـا دمت ستـموت .. لماذا تموت كالآخرين ..؟ كل يوم يموت الملايين .. لماذا لا يكون لموتك حالة متـفـردة ..؟ تضـرب الزمن في مـقـتـل، فتعيش بضع أعوام أخري في الحكايات ..!

لذا فــقــد جــاس بذهني .. الانضــمــام لإحـدي المنظمـات الفلسطينيه التي تري أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .. أو الانضـمـام الي ثوار افـريقـيـا ضـد ناهبي الثـروات لدفع حـالات التخلف والقهر .. ثم أدركت في نفس الوقت ان أرض بلدي محتلة ويجب أن يكون التطوع في مهمة خاصة مع أفراد (الصاعقة) ..

.. لكن بعد أن فتحوا الباب .. تبددت افكاري علي عجلة الروليت التي تدور بسرعة .. تتابعها عيون المقامرين .. ولم يكن لدي وقت لأ نتظر سقـوط الكرة واسـتـقـرارها امـام أحـد الارقـام

الكاسبة .. فما معني آلاف الدولارات وحفلة الإعدام في الانتظار؟!

سبست شعري وبللت شفتاي ومسحت وجهي وأرقدت الشعره النافرة فى حاجبي الأيسر ووقفت إنتباه .. منتصب القامة في مواجهة الباب والموكب .. إذا ما فتح، وجدوني جاهزا . وايضا مبتسما في ثقة ..

سأجعلهم يرونى مستهيناً بالموت ..

شوقي القرداحي أعدم .. رأيته متخاذل الساقين يجرونه إلي طبليه المشنقه، أعد م قبل أن يأتي الرد من الرئيس .. وقبل أن يُطّلع أحد علي تقرير ضابط المخابرات .. الذي كان يصارع الزمن .. خلتُ أن سيارته تعطلت .. فهبط منها وركب القطار فإذا بالقطار يخرج من فوق القضبان .. فيهبط ويعدو إلى مطار النزهة .. واذا بالطائرة - التي يجب أن تحمله إلي قصر الرئاسة بالقاهرة يصيبها عطل فني .. وتتبخر الدقائق .. وتزحف عقارب الساعات من ساعة إلي ساعة، وعندما تضيق الفجوة، ويصير الحساب بالدقائق .. يتذكر أن ثمة تليفونات سلكية ولا سلكية .. فإذا بالرقم الذي لابد وان يطلبه سرا من أسرار الدولة .. وعندما يفعل المستحيل - للاتصال بالرئيس - الذى بيده وحده وقف حالة الإعدام .. ويحصل علي الرقم .. لا يتبقى من الزمن إلا دقائق معدودات .. بالكاد تكفي مكالمة مع الرئيس ومكالمة مع مأمور السجن .. وعندما يطلب رقم الرئيس .. يختلط الخط مع مخبز الحاج رفاعي .. يعود ويطلب الرئيس .. فاذا بالجواب .. آسفين ..

لا نستطيع ازعاجه .. ويستمر فى الالحاح .. واظهار خطورة الأمر .. ياتى اليه الصوت البعيد .. (نصف ساعة من فضلك .. حتى نتصل بك أولاً لنحصل علي حقيقة رقم التليفون الذي تستعمله بالاسكندرية). ينظر رجل المخابرات فى ساعة يده .. ويقول له .. (لا داعي يا باشا .. الآن تم الاعدام ..) ويغلق التليفون ويشعل سيجارة من ناحية المرشح .. ولم يكن في علبته غيرها ..

(٢٤)

عم صادق الرميحى .. أخذ يحافظ علي وعاءه البدني .. يشخذ خلاياه وروحه لتبقى حيه بداخل هذا الوعاء النحاسى .. في إنتظار أن يحيا مرة اخري بعد غلطة العمر .. ثم يموت بدون مقدمات .. سوى هذه الكلمات التي كان يرددها من حين لآخر، حتي أعتدت عليها .. دون أن يلتقي بولده ممدوح ودون أن يستخرج خبيئته التي نسجت حولها قصة تزاحم قصة الكونت دي مونت كريستو ..

هل مات عم صادق .. بعد ما وجد أن خبيئته التي أخفاها في جدران البيت القديم قد ضاعت لتوسع حدث في شارع الزنقة ..؟ أم أنه مات بعدما وقف امام ممدوح فأنكره ؟ أم ان كل ما حكاه لي .. كانت أكاذيب صدقتها وجعلني استدفئ بحرارتها ..؟

اشعر ببرودة أرض الزنزانه وأتبين أني أقف علي أرضها حافياً، لم أجد بي رغبة لوضع الشبشب في قدمي .. برفق فتحوا

الباب ولم يصدر صوت أنينه المعتاد ..

« قلت لك ياعم صادق، ان هذه الاصوات لصيقة الصلة بأبواب الزنازين، لا تبدد زيت الطعام علي المفصلات .. »

(٢٥)

السجان عجرود، وضع يده في ذراعي اليمين، والسجان عسران وضع يده في ذراعي الشمال .. لا .. لا أرجوكم لا تعصبوا عيناي .. أريد ان أري ماذا تفعلون، مشيت بينهما علي نفس الخطوات الرتيبة ذات الوقع الطبلي، ووجدت نفسي أطرقع بلساني داخل فمي بصوت يشبه الترومبيته ..

تك ترك ترك تك .. تك ترك ترك تك وعزمت أن لا أنهار ولا تتخلخل ركبتاى - سألت السجان عجرود ..

- ماذا تم بشأن طلبك فى أن تكون مساعدا لعشماوى .. وتحصل علي مكافأة مالية، على كل نفس تزهقها، ثم ترث لقبه المبجل ..؟

قال عجرود -(إنه لازال يتدرب ولكنه فى كل عملية يمسخ الطعام في فمه، ويمكث عدة أيام يطرد من جوفه كل السوائل، حتى أكواب الشاى السحت ..)

قلت له : سوف يتاح لك في هذا الصباح ، فرصة لا تعوض

.. ستري رجلا لا يهاب الموت ، يستقبل ذلك الرعديد بالاحضان..!

رأيت انبساط أسارير عجرود وأخذ يضحك وكرشه يهتز .. رأيت الفرصة سانحة وهما يمسكان بذراعاي .. أن أتمرجح قليلا بينهما .. كما كنت افعل وانا طفل بين أبي وامى .. إلا أن عسران - كاد يسقط علي الأرض ويختل نظام الموكب المهاب .. كان عسران لا يزال يعاني ضيقا وهزالا منذ هروب - سند مغماطيس، مهرب المخدرات .. الذي ذهب الي أرض الأحلام .. وترك عسران في زنزانة الأوهام، حتي دون أن يمنحه الظرف المغلق على الخمسين جنيه !

تقدم الضابط الكبيرة مسيرة الموكب، عند إقترابنا من غرفة الموت، صار يمشي أمامي مباشرة .. بدأ ظهره عريضا، وتحت أبطيه ينشع العرق، كما بدا خصره نحيلا، وردفيه مكوران .. أخذت إحدي إليتية تصعد والاخرى تهبط بالتبادل مع خطواته المنتظمة في رقصه شرقية من افلام الأربعينات، صحت ممسكا بالنقوط .. (شوباش علي عشماوى سفير الموت المبجل .. شوباش علي الشيخ ريحان وكتابة ومواعظة بأن أبغض الحلال عند الله قصف الرقبة - شوباش علي السجن وأهل السجن .. زغرودة للمصائب .. !)

رأيت أننا قد وصلنا إلي غرفة الاعدام .. رأيت انهم استبدلوا العظمتين والجمجمة وعلامه اكس الحمراء بلافته زاهية الألوان كنوع من التمويه .. اعتقدت أن الغش والتحايل وصل إلي غرفة الإعدام، ولكني اكتشفت أن التمويه كان بغرض تزويق كل شئ فى حياتنا - من الظاهر كتبوا - انها كازينو الكوثر ..

تذكرت أني لم احج بعد .. ولم أشرب من ماء زمزم قط .. كما أنهم قد أحاطوا الواجهة بلوحة عليها صورة الملك چورج، في الملابس العسكرية - ثم تبين أنها صورة لرجل أسمر شعره اكرت وشفتيه غليظتان وعيونه وارمه .. تشبه إلي حد كبير شخصية أعرفها .. وعلي الباب حبل من المصابيح الملونه، أحمر وأصفر وأزرق وأخضر .. حتى خشيت أن لاتتاح لى فرصة إثبات شجاعتي أمام الموت ..

ولما فتحوا الباب .. كانت هي غرفة الإعدام .. رأيت عشماوى يقف فوق الطبلية ممسكا بإحدى يدية حبل المشنقة معقودا ومدلي أمام ساقة اليسري .. وأمسك باليد الأخري شمعة العرس مشتعلة وعند عنقها الفيونكة الحرير البيضاء .. وعلي طرف الطبلية، كانت (نوال) تجلس في ثوب الزفاف والقفازين الأبيضين حتي الكوعين .. وقد وضعت ساقاً علي ساق فى شموخ، نافرة صدرها أمامها .. تحتضن زهورا بيضاء من البلاستيك، كنت أتحرق للدخول إلي الغرفة ولقاء (نوال) .. وكانت هي تنتظر بذلك الكبرياء الذى كنت أعرف كيف أفتته فى أحضاني ..

بينما كان الضابط الطينى .. مستمرا فى الرقص وجمع النقوط من المساجين .. تجار المخدرات والنصابين والمحتالين والحرامية .. صنعوا حبلا معلقة بها الدولارات الخضراء والجنيهات الاسترليني الحمراء والجنيهات المصرية البنية .. أوصلوا طرف حبل النقوط بصدر الراقص الذي أخذ يدور ويتمايل فتكتسي ملابسه الاميرية بأوراق البنكنوت، وبعض المساجين يتحرقون إلي إلقاء نقودهم علي رأسه وتحت أقدامه .. رأيت جنيهات ذهبية تلمع

.. ورأيت عم صادق يقف ويبتسم .. نفس الابتسامة التي استقبلني بها معتقدا أني ابنه ممدوح .. ماذا لو كان صادق أبى بالفعل .؟ ربما لكنت - (بالخميرة) - التى تركها لنا - لصرت مليونيرا تخطب الأحزاب وده - وترشحه زعيما لإحدي الدوائر .. ثم ينضم لحزب الحكومة .. ويصير مليونيرا .. ورأيت المخرج حسن الإمام يناقش تفاصيل هذا السيناريو .. ويدون بعض الملاحظات ليصنع فيلما تراجيديا،يبكي المتفرجين،حتي يزيح عنهم أوجاعهم .. !

صحت في عم صادق .. يا عم صادق لا تقف هكذا تبتسم كالأبله الروسي .. أو أبن نعيمه .. تعال وقف معي .. هاهي (نوال)،التي لم أحك لك عنها شيئا .. حتى لا أسقط من عين نظرتك الأبوية ..

قال عم صادق : ولكنك ستموت الآن ..

رأيت عم صادق ينظر إلي نوال باعجاب .. فأبديت له رغبتي الدفينة في أن نقتسم النقوط مع فرقة الإعدام .. (نوال حضرت من اجل الميراث) .. لكن عم صادق تقدم ووعدني بأن يمنحني الخريطة .. التي منحها عجوز الكونت دى مونت للبطل ليحصل علي الكنز ويقوم بالانتقام من الذين وقعوا .. ثم وقعوا .. ثم جلسوا يحصون الدولارات ويبسطونها أمام المصابيح، حتي لا يتسلمون المزيف منها مقابل - الخيانة ..

ولما استمر انسيال النقوط،وأمتلات الأرض بالنقود الورقية والذهبية رأيت الجميع ينشغلون عني - حتي عشماوى نفسه

بشاربه المميز،القي بالشمعة وحبل المشنقة المعقود واندفع معهم .. يجمع النقود من الارض ويدسها في جيبه .. رأيتهم جميعا - حتي الشيخ ريحان،يزحفون على أربع ويلتقطون الدولارات والاسترليني دون ان يعيروا الجنيهات المصرية التفاتا ..

(أيكون السبب أنها جنيهات الثورة الأم .. أم انها جنيهات ثورة التصحيح التي لا تساوي شيئا)

ورفاقى الثمانية عشر - فى صورة تذكارية .. طوال القامة جلوسا في صف أمام الواقفين من قصار القامة .. وقد جعلوا المراكز الخمسة والدكتور الفيلسوف .. في المنتصف .. يقهقهون بالضحكات الصاخبة، ويفتحون أفواههم بصورة لم أعهدها من قبل .. كنت أعرف لماذا هم مسرورون .. لأنهم متفائلون .. كان لدى السر .. الذى يجعلهم يضحكون - كما لدينا الشمس التى يمكن أن يحيل العلم حرارتها إلى طاقة،أروع من طاقة البترول.وساعتها لن يستطيع الغرب البارد الثلجي، أن ينقل هذه الطاقة إلي بلاده ومن الطبيعى أن يتخلى عن دفع الدولارات لحراس مصالحه .. فتتلاشى السجون ويتلاشي القهر ..

اشتقت بشدة لرؤية عدد من أفلام ميكي ماوس ومغامرات ذلك الفأر الزكى وهو يموت ويحيا آلاف المرات .. أمام القط الشرس .. كانت هذه هي الرغبة التى سأمليها وأنا أواجه الموت.

(٢٦)

إرتميت فى حضن نوال .. لم يتبق لي سواها .. والجميع مشغولون باحتفالاتهم، لذه دفع المال .. ولذه جمعه .. أغلقت باب غرفة الاعدام .. فإنقطعت صلتى بموكب الموت .. ليس هو المكان الذي يتسم بالبشاعة .. إنه الموكب الذي ينشر الموت، كان حبل المشنقة قد التف حول الشمعة الملقاه علي الأرض .. وكانت نوال تنضو عنى ملابسي الحمراء .. وأنا أنضو عنها فستان الفرح الأبيض .. لكن الدق علي الباب أخذ يعلو ويرتفع .. تك .. تك .. تك .. دب .. دب .. دب

كان لي رغبة شديدة،ربما الأخيرة،أن اضاجعها واقفين .. لكن حبل المشنقة كان قد أتى على الشمعة .. ثم بدأ يزحف تحت أقدامي .. هرب مني الدم تراخت اعضائي .. كانت هي تنتفض بالرغبة وكنت أنا أنتفض بالعجز .. !

الدقات على الباب تلح .. فتحوا الباب .. أحاطوا بي .. وجوه كثيرة احاطت بي، كانت وجوههم مقلوبة، لا أري إلا فتحات أنوفهم .. لا ليست وجوه آدميه،شعرت بالخوف .. تلاحقت أنفاسي .. كما أني كنت أتميز غيظاً وضيقاً من رجولتى التى خذلتني ..

....

....

فتحت عيني تماما .. ورفعت رأسي .. رأيت رفاقى .. عدد

منهم .. يوقظوني

كنت أنظر في إتجـاه ذقـونهم فلم أتبين من بينهم الا المركـز الأدبي

كان يضحك .. وهو يقول

- خـلاص يا أخي العـزيز .. إفـراج .. وصلت الإشـارة أمس بعد غلق الزنازين، قم لتستعد .. السيارة ستأتى قبل العاشرة .. لتنقلنا إلي نفس المكان الذي أتينا منه .. مباحث أمن الدولة ..

- تاني .. !؟

- لا- هه هه .. الأمر هذه المرة سيختلف .. وسترى منهم الجانب الإنسانى ..!!

- حقا .. أم أنك متفائل ..؟

جلست غير مصدق .. عقدت أصابعي حول ركبتى .. فإذا بدبلة الخطوبة بين أصـابعي، لا زالت أنيسـة كـآبة علي قلبي .. ثقيلة (والله العظيم).. وقبل أن يتركني (المركز) سألته : ما هو القهر ..؟ .. فتبسم .. !

(تمت)   سيدي بشر

عبد الفتاح مرسى

١٩٩٥/١٩٩١

كتب صدرت للمؤلف

المجعرة [علي حافة النهار] رواية

كتب تحت الطبع

المحسوس والملموس (رواية) أجيزت بالمجلس الاعلي للثقافة قيد الطبع

زعربانة (رواية) في انتظار الطبع بدار الهلال

زمن الغنط فرهود(رواية) تحت الطبع (جماعة أصيل)

مشاوير البعد والقرب (قصص) سلسلة اشراقات

نقش أزرق (رواية) أصوات أدبية

زفة علي حساب الحكومة (رواية) روايات عربية

الذات والذوات (رواية)

سيدي بشر ت ٥٤٨٨١٥٢

رقم الإيداع ٩٥/٥٦٤٢